فهد العتيق

ليل ضال مثل بلاد ضائعة

قصص

زوايا
للنشر والتوزيع

ليل ضال مثل بلاد ضائعة

العتيق ، فهد
ليل ضال مثل بلاد ضائعة/ فهد العتيق
القاهرة: روافد للنشر والتوزيع، ط1 2018
142 ص ؛ 21 سم
1- قصص
2- العنوان
أ. المؤلف
رقم التصنيف: 01،813
رقم الإيداع: 2018/22118
ISBN: 978 - 977 - 751 - 441 - 5
جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع
+2 0122-2235071
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

تصميم الغلاف: رائد مجدي

فهد العتيق

ليل ضال مثل بلاد ضائعة

قصص

إهداء...

إلى القصة جوهرة الأدب الحديث في العالم.

إلى الحكاية ابنة التاريخ وابنة الزمان والمكان والسحر والخيال الخلاّق في الليالي العربية: ألف ليلة وليلة. إلى القصة التي تفتح أبواب الذكرى والحلم وتجّدد فينا الحياة، القصة التي قد تتحول هكذا خلسة بين يديك إلى مسرحية أو سيناريو فيلم أو رواية من عدة قصص وعدة فصول. القصة التي علمتنا كيف نستطيع أن نقول في عبارة ما كان يقال في صفحات والتي علمتنا كيف نجعل اللحظة مشهدا كاملا تتخيله وتحسه وتسمعه وتراه وتعيشه.

الى قصة الحكم لكافكا، والأشياء تنادينا لخوان مياس، وصديق قديم جدا لإبراهيم أصلان، إلى قصص ارنست همنجواي وخورخي بورخيس وصادق هدايت وماركيز وكارلوس فوينتس وماريو بنيديتي وخوليو كور تاثار وايزابيل الليندي، وغيرها من القصص التي اضاءات حياتنا بأدب رفيع اللغة والفكر والخيال.

الى الأصدقاء الجدد والقدماء من المترجمين العرب الذين أمتعونا بترجمات متجددة ومبدعة دائما من اسبانيا وأمريكا اللاتينية ودول العالم: صالح علماني وأحمد عبداللطيف

وعبدالله ناصر وأحمد شافعي ومصطفى الرادقي ومحمد المرادي ومحمد بوزيداني ومها عطفة ومحمد الخطابي وتوفيق البوركي وجعفر العلوني وغيرهم من المبدعين العرب في الترجمة.

ثم: إلى الولد تركي..

وحكايته البسيطة والممتعة والهادئة والعميقة التي وصلت ونحن في مقهى بحي الغدير شمال الرياض، حين سقط هكذا خلسة مثل حجر ثمين في نهر أوقاتنا، وغير مجرى حياتنا.

أولاً: ليل ضال مثل بلاد ضائعة

كمين الحكاية

هذا هو المغرب، سيد الأوقات وصائد الحكايات، اللحظة الجوهرة ما بين الليل والنهار، لحظة سِرية ما بين النور والظلام، ارتحت فيها قليلاً من تعب يوم كامل، كنت أشعر بمزيج البهجة والحزن مع حالة مزاج موسيقية عالية، وجدت أنها تملأ روحي، ومعها كلمات أعرفها تشبه وخزات سرد خفيفة، وكنت أشعر بأرواح حولي تتمشى في زماني ومكاني، لكني أجّلتُ أحزاني وذاكرتي، أجّلت غيضي وربَّيت شجني مثل أرنب صغير، أجّلته وربَّيته، صار شجني حزنًا عميقًا، وصار غيضي غصنًا طويلاً له ظل يغطي فناء بيتي، صارت أشجاني وقهري مثل ريح خجولة لكنها غاضبة، تريد أن تدور مثل امرأة تبحث عن حب مفقود. أجّلتُ شجني صغيرًا وكتمته كبيرًا، مثل غيض، مثل حلم، كتمته ومزجت معه بهجة تشبه فكرة، قبضت عليها قرب رصيف مجهول مثل كمين حكاية، حين

خرجت في وقت ممتع كانت فيه شوارع حارتنا هادئة وقليلة النور.

كنت أمشي على رصيف الشارع الصغير، ذاهبًا إلى المخبز القريب ثم إلى بقال جواره. وجدت على الرصيف المُظلِم فكرة صغيرة ضائعة، كانت مثل قطة هائمة أو مثل فكرة قصة تائهة، التقطتها فأصابتني بنشوة عالية، جعلتني أتحدث مع نفسي مثل فاقد. سألت صديقي الخبَّاز عن أحواله، قال: سأبيع المخبز لهذا الأفغاني الذي أمامك وأغادر إلى وطني. كان "علي خالد" يمسح عرق جبينه بفوطته الحمراء القديمة، وكان يحكي لي عن أولاده الذين يعيشون بؤسًا وخرابًا في شوارع وطنه، وأنه يريد أن يلمهم في قبر واحد، قلت له: ونحن أيضًا نعيث في فوضى شوارعنا وحياتنا، نحن جميعًا نعيث حزنًا وخرابًا وغيضًا وبؤسًا، نعاني الوقت المهدور ونعاني بهجات مسروقة أو مُحرَّمة في شوارع أهدرت أحلامنا.

ودَّعت "علي" وأخذت الخبز، ثم مِلت على البقال، أخذت خبزًا وسجائر لليوم والغد وما بعد الغد، فربما تمنعني بهجتي الصغيرة من الخروج في الأيام القادمة. قال لي عامل البقال الباكستاني "أجمل الزمان": هل تريد شيئًا من البطحاء؟ قلت: مثل ماذا يا أجمل؟ قال: أي شيء. ثم غمز لي غمزة خفيفة، كانت مثل بهجتي الضالة أو المسروقة، قلت: شكرًا يا أجمل الزمان. ودَّعته ومشيت إلى بيتي. وصلت سالمًا مُعافًى، ومصحوبًا

بتلك الفرحة الصغيرة التي وجدتها في طريقي على الرصيف المُظلِم، كانت مثل قطة هائمة أو مثل فكرة قصة ضائعة.

في البيت مكثتُ مع بهجتي الصغيرة وقتًا ثمينًا، كتبت فيه فصلاً من قصة طويلة غامضة ومظلمة ورطبة عن أرواح قريبة ميتة، أراها وهي تطل على روحي ثم تقترب وتتمشى في زماني ومكاني، وعن الإنسان المؤجل الذي في داخلي، وعن إنسان آخر فوضوي وغاضب يريد أن ينهض مكانه، كنت أقطر عرقًا وكنت أشعر بتناقض عميق يهز وجداني، فهل -وأنا الميت الذي أصابته الصدمات والصفعات باليأس- ما زلت أنا، أم أنني الغاضب الذي يريد أن يخرج كائنًا سواهما؟

توقفت، قلت في نفسي وأنا أنظر في جدار بارد أمامي، لو كنت في مدينة أخرى وخرجت إلى البقال والخباز مشيًا على الأقدام، ربما صادفت على الطريق رصيفًا أخضر أو وجهًا حسنًا أو مقهى موسيقيَّ الهوى، وليس أرصفة مغبرة. طردت هذا الهاجس الذي أصابني بالملل وأنا أشعر أن قلبي صار مثل قطة ضالة تبكي في زاوية لها رائحة قديمة. قلت في نفسي: إن وقتي صار عادة خاملة، وحياتي صارت مثل كيس خبز يابس أو تمر قديم، تلمسه فينفجر في وجهك غباره.

سرحت في مكاني وكنت أرى أنني أنام في برية واسعة بعيدة، وحولي منازل طين قديمة واطئة، تنبعث منها موسيقا قديمة لها رائحة عميقة أعرفها كأني على وشك أن ألمسها،

موسيقا من وحي قصائد شعر جاهلي، أو ضحكات سكارى ضالين، وأحيانًا أرى أنهم قد بدؤوا حروبهم، فتطأ نومي حوافر خيولهم الراكضة بلا دليل. وفي الصباح أجد روحي مضروبة وذاكرتي مثقوبة ومزاجي فاسدًا وحلقي محتقنًا وجسمي حارًا. قلت أرمم ذاتي المضروبة والموبوءة والمحتقنة، مثلما رممت على مدى عقود وقتي الذي صار مثل عادة خاملة، وحياتي التي صارت مثل كيس الخبز.

سأرمم وقتي المضروب بوخزة من ماء السماء، وقبلها بتفاحة، ثم حمام بارد، أنفض فيه كيس التمر المغبر، مشاريع موقتة للترميم قد تبدأ الآن، لكن قد يمتد التأجيل لحين يخف ثقل أطرافي، ويعود لذاكرتي جزء من روحها المفقودة، غبت في خدر لذيذ، كنت فيه أتحدث بصوت عالٍ مع جاري في مكان رمادي غامض، قلت له: "اعذر انقطاعي عنك يا صديقي، فأنا أنام باكرًا وأصحو باكرًا"، لكن فجأة رأيت بجانبي بنتًا تتحدث مع صديقتها ربما، كانت بجانبي وكانت تحرك يديها أحيانًا، وأنا أواصل حديثي مع جار صامت، وفي لحظة غريبة لمست يدها جسدي، فتحركت أشياء متلذذة بتلك الحركة العفوية، سألت نفسي أين رأيت هذا الوجه الجميل من قبل. بحثت عن جاري لم أجده، التفت فلم أجدها أيضًا، ولهذا قررت أن أبحث عنها، أذكر أني رأيتها في سوق غير واضحة المعالم ذات خميس، ربما أتذكر المحل الذي تذهب إليه عادة، سأنتظرها هناك،

سأقول لها: أنتِ فكرتي التائهة وأنتِ حبيبتي الضائعة. سأشتكي لها وأقول إنني حزين جدًا وإنني كل يوم أفقد شيئًا من ذاتي، وأفقد احترامي لذاتي الصامتة، سأقول إني أفتقدك دائمًا وإنني أتذكر لقاءات قديمة عابرة مختلسة، وأذكر ضحكتك العفوية التي تنطلق ببراءة وعمق، سأعترف لها أن أظافر الحارة اليابسة والباردة والخاملة ضغطت على أرواحنا، ضغطت كفَّان ناعمتان على وجنتين صحراويتين، فتفجَّر الرأس ماءً وأعشابًا ونخلاً وذكرياتٍ ولهوًا ودودًا صغيرًا. وسأقول إنني ما زلت أراكِ تقفين هناك بعيدة عن الأعين، عندما التقينا وتحدثنا وقلت لكِ إنك لست المرأة الوحيدة في هذا العالم التي تبكي كثيرًا، وتنام قليلاً، لستِ المرأة الوحيدة الجميلة التي لا تمشط شعرها ولا تقلم أظافرها ولا تستمع إلى الموسيقى.

2008/6

ليل ضال مثل بلاد ضائعة

أشعر أن الليل الضال يتسع، في هذه الحارة، العذبة أحيانًا والكئيبة أحيانًا أخرى، الظلام الموحي والهادئ والممل يتَّسع ويطول، وأنا أمشي في الحارة وحيدًا، أمشي في طرقات حائرة وضائعة، ثم أصادف محل فيديو الموعد الذي أحببت وجوده في حياتنا، أحببت وجوده في حارتنا متربِّعًا مثل علم كبير في زاوية كبيرة على شارعين كبيرين جوار بيتنا، وعلى بُعد أمتار من المحل تقع سوق ريمان، وخلف هذه السوق يقع بيتنا. في الغالب أذهب مشيًا على الأقدام مرورًا بالبقالة والمغسلة والمكتبة والفوال. وفي أوقات حالمة جدًا أتوقف لأراها تمضي بعيدًا، حقيبتها خلف ظهرها، فيتسلل غناء قديم لروحي، تتسلل بلاد ضائعة أو حائرة، تتسلل وجوه غائبة أعرفها، وتتسلل رائحة قديمة، رائحة حكايات ورائحة مشاعر تعيدني إلى زمن مضى. كأننا خرجنا جميعًا من معركة طويلة. قلت في نفسي: هل خرجنا

فعلاً أم أننا ما زلنا في جحيم المعركة؟ بحثت عنها طويلاً حتى وجدتها عند باب حديقة قريبة وسط الحارة تنتظر خروج أهلها، سألتني بعصبية: اتصلت؟ قلت لها: لا. خرجت والدتها من الحديقة، وأنا ذهبت وخلفي صوتها وهي تردد: بالليل.. بالليل. وأمامي رجال الهيئة بثيابهم القصيرة يروحون ويجيؤون مثل ثعالب كئيبة.

هل اتفقنا أن نلتقي في المساء؟ ربما، لكن النوبة عاودتني فنسيت من أنا، وفي الصباح حين اتصلت بها، لم تسألني أين كنت ليلة البارحة، ولهذا ارتحت. سمعتها تعتذر بهدوء عن عصبيتها وعن غيابها، في اللحظة التي كنت فيها أحلم أنني أتزوجها في موكب بسيط بعد مشاعر عميقة، وسط حياة مملة وبلا روح.

التقينا كثيرًا في أوقات قصيرة جدًا ومسروقة ومرتبكة لكننا لم نتواصل، لأنني كنت أعاني من ذاكرة سيئة ومزاج قلق، وهي تعاني من نوبة عصبية، مع ذلك ما زلت أراها، ما زالت أمامي، وأنا ما زلت خلفها، هي أمامي بعيدة مثل نقطة ضوء يهتز، حقيبتها خلف ظهرها، وأحلامي الصغيرة في حقيبتها. فجأة تتوقف على الرصيف، تتلفت حولها، قلت ربما تتذكرني، أراها تفتش في حقيبتها، قلت ربما تدرك الآن أنها نسيتني، مثل أوراق قصيدة قديمة، هنا، في منتصف الحارة، وليس في حقيبتها الفارغة.

دخلت محل فيديو الموعد صباح الخميس، كان خاليًا من الزبائن، وكان شباب المحل يغسلون الأرضية السيراميك بالماء والصابون. متعة التجول بين ألبومات الأفلام لا تعادلها متعة، بالذات حين يكون المحل خاليًا أو قليل الزبائن. وجدت مسرحيات فيروز الغنائية المشهورة، ومسرحيات دريد لحام وأفلامه، وبالذات "كاسك يا وطن". المحل يزدحم ليلاً فقط، وبالذات مساءات الخميس والجمعة، أولاد وبنات ونساء ورجال من مختلف الأعمار يشترون أفلامهم المفضلة، أو يستأجرون الأفلام العربية والهندية والأمريكية، ثم يشترون العشاء ويذهبون لبيوتهم. حين أدخل المحل أشعر أنني أعرف هؤلاء الشباب الذين يبيعون أو يؤجرون الأفلام في المحل، أشعر أن وجوههم مألوفة، ربما كنا نراهم في ملعب الملز في المباريات، أو أمام بوابة سينما نادي الهلال أو نادي النصر التي كانت تعرض أفلامها مساء كل جمعة، وكنا ممنوعين من دخولها لصِغَر السن. في تلك الفترة، لم أكن أعرف ماذا أريد بالضبط، كنت أقرأ الصحف يوميًا وأتوقف عند الصفحات الفنية والرياضية والأدبية، وأحاول كتابة يوميات حالمة، أستمع للأغاني الجديدة وأشاهد الأفلام الجديدة لإضاعة الوقت فقط، أميل لأفلام القصص الاجتماعية الدرامية، التي فيها دراما عالية، وأرى أنها حياة حقيقية. أكره الأفلام البوليسية والرعب والأكشن وأرى أنها تمثيل سخيف.

إذا وصلت بالسيارة من مشوار بعيد وتوقفت عند إشارة شارع المدينة المنورة، أرى أمامي فيديو الموعد، فأشعر براحة نفس كبيرة. إلى اليمين الدخل المحدود وإلى الأمام طريق مكة. أذهب إلى اليسار، الشارع المؤدي إلى بيتنا وهو المؤدي للبديعة والسويدي. أرى المحل في هذا الليل الجميل مزدحمًا بالناس من الجنسين ومن كل الأعمار.

هنا التقينا ذات مساء، هنا عرفتها أول مرة، تواصلنا بشكل متقطع بالهاتف، لكن ما زلت حتى الآن لا أعرفها، رغم مُضي سنوات طويلة على تعارُفنا الخجول داخل المحل. هي تتابع الأفلام الهندية وتعرف ممثليها وتعرف أغاني الأفلام المشهورة، وأنا بسبب الملل صرت أتابع بعض الأفلام والمسرحيات والمسلسلات العربية والأجنبية، ولا زلت أذكر تفاصيل فيلم "أحلام هند وكاميليا" لنجلاء فتحي وأحمد زكي. قرأت فيما بعد أنه صار من أفضل مئة فيلم عربي. أزور هذه الحارة العذبة بعد غياب، فأتذكر موسيقا أغاني الأفلام الهندية المشهورة، موسيقا راقصة فيها شجن وحزن، تعيدني رغمًا عني لزمن مضى ولم ينقضِ. الآن.. في هذه اللحظة، كأني أراها في الشارع من بعيد تتلفت حولها، قلت: ليتها تتذكرني، أراها تفتش في حقيبتها، قلت: ربما تدرك الآن أنها نسيتني، هنا، في منتصف الحارة، وليس في حقيبتها الفارغة.

2015/8

محاولة دفن رطبة

قلت في هذه الليلة الممطرة: سوف أدفنه بحب في سطح بيتي، ثم أعود له حين تستقر الأمور. سأحمله بهدوء يليق بتاريخه، سأحمله بيدَي مثل طفل.

سأدفنه وسط كومة الرمل الرطبة التي صعدت بها للسطح من أجل زراعة الجوري، سأضع في داخله كل هواجسي، أسئلتي، أحلامي، خيالي، أحزاني الضخمة، أفراحي الصغيرة، كل شيء سوف أضعه في هذا المنديل وأدفنه في الرمل الأحمر.

أذكر منذ سنوات بعيدة أن زميلاً كبيرًا -وهو في الواقع ليس كبيرًا- قال لي: "أنت خياليٌّ"، لم أنم تلك الليلة. كنت صغيرًا، وكنت أظن أنها تهمة سياسية والعياذ بالله، فيما بعد قرأت كثيرًا لأعرف أن الحياة بلا خيال مثل سيارة بلا وقود، ولكن الخيال في بيئة بلا خيال قد تعتبره منكرًا وبدعة وشطحة

ونزوة، ويصبح عالة على صاحبه، وأنا لست بحاجة لشيء يكون عالة عليّ. لذلك سأدفن الخيال أيضًا لحين أنفض الغبار من روحي. سوف أرمي كل شيء في الرمل الأحمر الرطب بدل الورد، لكي أتحول إلى كائن محايد قليل القلق وقليل الأدب وقليل المشاعر الإنسانية وحر بعض الشيء، كائن قليل التركيز ومسالم بقلب بارد ومتفرغ لملذاته.

نزلت من السطح بعد عملية دفن بلا مراسم عزاء. قلت وأنا أنزل الدرج مصحوبًا بدوار خفيف ومزعج: أنا لا أحب العزاء إطلاقًا.. كل شيء إلى زوال، هذه سنّة الحياة. وصلت الصالة بسلام وأنا أتلمَّس دربي، فتحت إضاءة خافتة ودخلت غرفتي، استلقيت على ظهري، فإذا بي أرى لحظة أن أغمضت عيني، الطفل الذي كنته والرجل الذي ما زلته يلتقيان ويتعاتبان في طريق ضيق ومعتم، وخلفهما وجه نوراني يغويني، تذكرت أنني احتفلت به في وقت قريب، وجه يشتعل ضوءًا مثل وردة، كنت على وشك أن أزرعها في سطح بيتي، لكني تكاسلت ودفنت فيها أغنياتي وأحلامي.

قلت مات الطفل في داخلي، ماتت الأمكنة القديمة، ماتت ذاكرة وأحلام وخيالات مبدعة، وهذا وقت جديد يفيق على رأسي، والحياة ستكون مضيئة مثل صفحة بيضاء، محايدة مثل وجه فتاة مرحة، وثمة ألحان جديدة أراها تهبط إلى روحي، وفي الخارج أرى حنينًا يريد أن يصحبني معه إلى وقتي الجديد،

إلى أرضي الجديدة، ذلك الحنين الذي كان منذ زمن طويل، ولم أكن أعرف كيف أقرأ سطوره.

نمت بصعوبة، فرأيت أنني أمشي في ذلك الشارع الضيق والمظلم والرطب، الذي سمَّيته في فترة مضت بـ"شارع وجوه النساء"، سوف يُفضي بي إلى شارع آخر. شعرت بقلق حين تذكرت أني تركت شيئًا مُهمًا في سطح بيتي ولم أغلق الباب، شعرت كأن شيئًا ما يسير خلفي، ربما هي تلك الوجوه التي لا أعرفها أو ظلال أرواح هائمة، مع إحساس حاد بأني لست أنا الذي أعرفه، وكان في داخلي رغبة أن أسير إلى ما لا نهاية. أمشي بخطوات رتيبة كأنها موسيقى هادئة أو صامتة، تختلط التأملات بذكريات شوارع تفضي إلى شوارع أخرى، مع هواجس أخرى لا تنقطع، أحاول أن أوقفها لأنعم بحرية الحياد بلا تفكير، ما زلت أبحث عن وجهي القديم في الأركان والجدران المليئة بكتابات مبعثرة، كل الطرق إليه متلعثمة ومترددة، الطريق ثقيل وطويل، وقد تركت في المكان خلفي صدى ضعيفًا لصوتي، أحاول جادًا اللحاق به، وأنا أرى أن الحياة الجديدة المحايدة بدأت تترك في أثرًا من روحها، وكنت أحاول أن أتعايش مع هذه المتعة، في حين تنفجر الذاكرة مُبتعدة هناك إلى طفولة بعيدة، وإلى تعرية واقع تحوَّل إلى صور سريالية غير معقولة. الأسئلة والأفكار تأتي عشوائية وفوضوية، مع أصوات عالية أسمعها من بعيد كأنها تحاكمني، وأنا أردد كلمات دفاع

غير واضحة، في وقت بدأتُ فيه أرى عودة متكررة لوجوه قديمة أعرفها، في عتمة خفيفة أمامي، أشعر بدوار ثقيل أيضًا، وأنا أتأمل وجوهًا بتعابير مختلفة. كل أصحاب هذه الوجوه ماتوا، وكلهم الآن على مسرح غامض تبدو على أطرافه ستارة رمادية غامقة، نساء ورجال فقدتهم منذ أزمنة بعيدة، وكنت أراها بين وقت وآخر تطل عليَّ بوجهها الفاتن الذي بدأ يغيب من ذاكرتي، وكأنها تريد القول إننا ضعنا في عالم قاسٍ فرّقنا، تطل من البُعد فأشعر بتأنيب ضمير وألم وغضب، ثم في لحظات أخرى أشعر أنني أعيش حالة هي مزيج الحزن والفرح الموقت، حالة هائمة وغامضة. أقف هناك والناس تدخل وتخرج من أبواب كثيرة. أقف بعيدًا في محاولة أن أكون بلا ذاكرة وبلا حلم، كل الأبواب حائرة، وأنا الحائر أقرأ وقوفي أمام الناس والأصوات والحياة والدروب المُغلقة، أقف أمام كل باب مسحورًا خائفًا مترددًا.

صحوت من غفوة غائمة وثقيلة، أحاول تحريك قدمَي ولا أستطيع، أحاول أن أتكلم فلا أقوى على الكلام، ثم بمفاجأة مرعبة رأيتها تفتح الباب وتدخل، اقتربَت وقالت: أنا رفيقتك في حكاية "وقعت الواقعة" تقاطع طريق الرياض دمشق القاهرة.. هل تذكر صديقك الكردي؟

لم أستطع الكلام أنا المحايد الذي يريد أن ينسى، ظللت فقط أسمع أنفاسها اللاهثة، كأنها صدى لقرون طويلة

مضت، تقترب مني أكثر كأنها تريد أن تضمني، وأنا أرى بعد عملية الدفن أنها كانت من خيال انتهى. حاولت الابتعاد عنها قليلاً لكني لم أستطع الحركة، قلت في نفسي: ما زال الخيال يعمل، لم أدفنه بالكامل، إنه مثل تيار كهرباء صغير ملتصق بروحي. قلت سوف أبادلها الصداقة وحديث الذكريات حتى لا تكتشف جريمتي. حاولت الاقتراب منها، لم أستطع أيضًا، رغبت لو أنها تقترب لكي تعرف أنني ما زلت أنا الذي تعرفه، لكنها في هذه اللحظة العصيبة تركتني وخرجت من الغرفة، ثم سمعت خطواتها تصعد الدرَج إلى السطح، فشعرت بخوف عميق، وسمعت دقات قلبي كأنها تهز صدري.

2016/4

طريق المحطة

في هذا الصباح اللذيذ، وبعد رحلة مشي طويلة، وجدت رأسي راقدًا على صخرة كبيرة أعرفها، والأفكار والأحلام والخيالات تسيل منه مثل حليب قديم، فبعد أن دفنته في تلك الليلة الممطرة، مكثتُ في غرفتي عدة أيام، حتى تعبت ومللت، فخرجت أبحث عن الرؤيا وعن روحي، قلت سوف أذهب لمحطتي التي كتبت فيها حكاية "وقعت الواقعة"، في ذلك التقاطع المعتم بين الرياض ودمشق والقاهرة، ربما أجد بعض الأصدقاء هناك، وكنت قد رأيت الأحلام تتجول في غرفتي مثل دخان، فأيقنت أنه حدث تسرب في عملية الدفن.

كان الطريق نحو المحطة معتمًا وأنا أمشي في وقت رهيب، تصحبني جيوش من الأفكار وألعاب الخيال التي تشبه أحلامًا تحترق في لحظتها مثل شهب، محطة عربية تقع في تقاطع

الرياض دمشق القاهرة، أقاموها ربما بعد زلزال الثورات العربية قبل خمس سنوات، طريق ترابي طويل على جنباته جدران مليئة بالذكريات والرسومات الملونة الجميلة، وعبارات غَزَل وسياسة متكررة.

في هذا الطريق الملهم نحو هذه المحطة، هجمت الأفكار على رأسي المُثقَل بأسئلة كثيرة، حول حالنا العربية التي لا تسُر الآن، فقد هربت من ضياع الوقت في وقت ضائع إلى مجهول، من وقت ممل إلى طريق غامض وموحٍ، بدأ الخيال يتحرك وبدأتُ أرى أو أتخيل مدينة عربية صغيرة تنتظرني، بيوت مشرقة وشوارع مخططة وطرق للمشاة ومقاهٍ ومطاعم وأرصفة نظيفة عليها طاولات للزوار، قلت: هل هذه هي الجنة؟ ثم رأيت أن جيوش الأفكار تحتاج إلى فرز وترتيب حتى أعرف طريقي إلى أين.

تذكرت أنني في رحلتي السابقة لمحت بجانبي "كنوت هامسون" يمشي جواري، هذا الذي تسكع طويلاً في مدينته النرويجية التي يحبها، كان يريد أن ينشر مقالة لكي يشتري بريالين خبزًا وكأس شاي، ظلت مقالته معلقة داخل كيس في وقته الضائع الذي قابل فيه كل أشباهه وتحاور معهم، ظل يدور بها على صحف المدينة حتى جفَّت أفكارها، كان يسبقني بخطوات صغيرة وأنا أحاول تذكر بعض لحظات روايته الجائعة، ولهذا استطعت أن أرى جسده المُوحي يمشي أمامي

بلفافته القديمة حتى اختفى، قلت ربما أجده في المحطة ونشرب هناك الشاي بالنعناع.

حين وصلت المحطة وجدت تحت الصخرة سجادة صغيرة، وصديقتي قريبة منها تعد الشاي بالنعناع، جلست متعبًا، وهي جاءت بالشاي ثم جلست وهي تضحك.

قلت لها: لماذا تضحكين؟

قالت: وصلتني كوابيسك الحالمة وقصائدك المحترقة.

قلت لها: إذًا تعالي نتكلم عن أوضاعنا العربية التي لا تسُر.

قالت: أخشى أن تكون أحلامًا داخل حلم.. مثل أكياس داخل كيس كبير.

قلت: نعم.. مللنا من الكلام.

قالت: أين التغيير والتجديد؟

قلت: رأيت بالأمس فيلمًا مجنونًا عن الخيالات والهواجس حين تتحول إلى حقيقة على أرض الواقع.

قالت: أحب أفلام الواقع.

قلت: في الواقع مشاهد أكثر خيالاً من الخيال نفسه.

قالت: الشِّعر أفضل.

قلت لها: إن كل مقاطع الشِّعر أصبحت مؤلمة.

قالت: مثل ماذا؟

قلت لها: قصيدة لنوري الجراح عن الشام يقول فيها:

كل ما أسمعه الآن من بعيد.. ضجَّة جرَّافات وهي ترفع الحقائق عن أطفالي المُكدَّسين هم والموت.. تحت الأنقاض.

قالت وأذكر أيضًا: لست منهكة بأعمال المنزل ولا مجبرة على العمل.. مع ذلك أفكر بالانتحار!

قلت لها وقرأت أيضًا: لماذا نشعر باليُتم، بالرغم من أن لنا أمًا تطبخ الطعام وتضربنا؟

صبَّت لي الشاي ثم أخرجت لسانها الصغير وحركته يمينًا ويسارًا.

ثم قالت: مع ذلك فهو شعر لذيذ.

الآن أشعر أنني مشيت طويلاً، والأفكار لا زالت متقدة مثل نار صغيرة، حتى واجهني "محمد زفزاف" وقد أنهى كتابه "الثعلب الذي يظهر ويختفي"، وخرج يتمشى كما يقول، حكايته كانت عن مدينته الصويرة التي كالمرأة، والمرأة هي القفل والمفتاح معًا، حكاية ممتعة عن الزمان وعن الأمكنة التي مر بها وصورها العجيبة.

قلت لـ"محمد": أين نحن؟

قال: والله لا أدري!

قلت: ربما المحطة قريبة من هنا.

قال: توكل على الله.

قلت له: سوف أكتب عن محاولة عيش والحي الخلفي والثعلب الذي يظهر ويختفي، كأنها حكاية واحدة.

قال: كما تحب يا صديقي.

ثم دخل في مقهى مظلم كأنه مغارة.

وأنا واصلت السير أفكر كيف أبدأ بالكتابة، ثم بمفاجأة سألت نفسي: ماذا سيحدث في حال كنت لست ضائعًا، لست مؤجلاً، في حال كنت موجودًا، في حال كنت مرميًا مثل قطعة أثاث في بيتي؟ ماذا سأفقد؟ هل سأفقد الاستقرار والملل؟ لا شيء فعلاً! وهنا لحظات مثيرة تُحرِّض الخيال على الحركة، متعة أن تكون مرتحلاً وضائعًا في الوقت الضائع، مثل متعة أن تكون جديدًا وتبدأ من الصفر بلا ذاكرة وبلا عمل، ولهذا تذكرت الأشياء التي دفنتها في السطح قبل ترك البيت، وشعرت أن كل شيء يتسرَّب من حولي.

وصلت المحطة في لحظة هبوب عاصفة صغيرة، كأنها عمود من التراب، وصلت سالمًا إلا من آثار خيالات صغيرة لا زالت تعبث في روحي، لم أجد السجادة الصغيرة ولم أجد الشاي ولم أجد صديقتي، لكني وجدت رأسي راقدًا على صخرة

كبيرة أعرفها، والأفكار والأحلام والخيالات والذكريات تسيل منه مثل حليب قديم.

قلت في نفسي: سوف أجمع كل هذا وأكتب أيامي القديمة.

2016/10

مجرد مؤامرة

حملوه في المساء بين أيديهم، نقلوه من المزرعة إلى بيتهم القريب على طرف القرية، كانوا يحملونه بغضب مكبوت، وهو كان يبتسم بسخرية وألم مع شعوره بلحظات رعب خفيفة.

يتحدثون معه في الطريق القصير وينصحونه بصوت فيه مجاملة، لكن فيه أيضًا نبرة توبيخ واضحة وصريحة، يتحدثون معه بصوت شبه مرتفع، يحاولون أن يكون خافتًا حتى لا يسمعهم أهل القرية.

أخبروه بأن المزرعة ناشفة بلا ماء، والماكينة مُعطَّلة. قالوا له: يا أخي اجلس في بيتك.. عندك تليفزيون وراحة.. والخضراوات والفواكه في السوق بسعر التراب. دخلوا البيت وأجلسوه على الكنبة أمام التليفزيون. كان لا يزال يبتسم بسخرية وألم مكتوم، وهم بدأ يتضح غضبهم أكثر. لاحظ أنهم

صاروا يتجرؤون عليه في الكلام، بعد أن دخلوا البيت وأغلقوا الباب، صارت أصواتهم تميل إلى الصراخ في وجهه، وهو ظل يبتسم بسخرية بألم.

كان يفكر وسط هذا الضجيج ومحاولاتهم إقناعه: يريدون بيع المزرعة من دون أن يبوحوا بهواجسهم. وقال أيضًا في نفسه بحزن عميق: وأنا أفكر في قطع الطريق على هواجسهم. ثم ضحك بحزن وسخرية.

سألوه بغضب: لماذا تضحك؟ قال لهم وهو يبتسم بخوف: الآن كأننا نمثل مشهدًا في مسلسل درامي مأساوي. ثم أكمل وهو لا يزال يبتسم، وكأنه يريد تهدئة الأمور: أنا أريد أن أزرع وأتسلى، وأنتم أعطيتم الموضوع أكبر من حجمه.

وأضاف: الزراعة هواية وليست تجارة.

قالوا له: حتى بيتك بالرياض فيه حديقة تستطيع زراعتها.

وهنا شعر بارتفاع ضغط الدم وألم في الرأس، مع لحظات رعب عميقة وثقيلة، بعد أن زادت شكوكه.

سألهم بنبرة فيها تعب وعتاب وسخرية: حديقة؟

قالوا له: نعم حديقة ممتازة.. ماذا تريد؟

ثم تركوه بغضب وخرجوا وأغلقوا الباب خلفهم.

في اللحظة التي خرجوا فيها هجمت عليه الهواجس والوساوس والأسئلة مثل سيل يتدفق بعنف: لماذا تركوني وخرجوا بسرعة؟ هل جاءتهم دعوة للعشاء من قريب أو صديق في القرية ولم يخبروني؟ لماذا لم يخبروني؟ لماذا لا يريدون أن أصحبهم؟ لماذا يريدون عزلي؟ لماذا حين كانوا يتحدثون مع بعضهم يصمتون فجأة إذا حضرت؟

نظر إلى قدميه وسأل نفسه: لماذا حملوني من المزرعة إلى البيت ولم أرجع معهم وأنا أمشي؟ نظر إلى قدميه مرة أخرى، حرَّك رجليه، كانت الحركة ثقيلة، وجسده فيه شيء مثل التنميل، ورأسه فيه ما يشبه الدوار.

حين تركوه وخرجوا من بيت والدهم الراحل، سأل أحدهم: لماذا لم يستطع المشي من المزرعة إلى البيت؟ لماذا لم نسأله عن نوم قدميه؟ لم يجبه أحد، ربما خافوا أن يكون محتاجًا إلى عيادة المستشفى وهم مشغولون، ليس لديهم وقت لرعايته.

في البيت تمدد على الأريكة: أنا مريض لكن لن أعود إلى الرياض.

كان مليئًا بهاجس أنهم يفكرون في الاستيلاء على هذا البيت أيضًا.

2017/6

محاولة ترميم

ذات مساء خصب، هجمت فيه على رأسي أفكار متداخلة، فكتبت سيناريو الفيلم المؤجل، في تلك الليلة التي شعرت فيها بفراغ العيش في مكان متبلد، حاولت ترميم ذاتي بأفكار جديدة. مشاهد لفيلم اختمر كثيرًا في الذاكرة، مشاهد روحية تبحث عن رؤيا جديدة. أرسم شموسًا ضائعة تبحث عن أرض جديدة، أرسم أقمارًا محبوسة يحرسها أولاد وبنات منتشون، وحين أحاول إغلاق عينَي المتعبتين يهزني صوت من الداخل، أرتجف ثم أصحو لكي أرمم ذاتي من جديد، بروح جديدة لا زالت تبحث عن الرؤيا. كنت أبحث عن وقت رمادي غامض، وقت جديد وطازج ومختلف يرسم خطوطًا فرعية في اتجاهات كثيرة، وقت أعود منه بحكاية جديدة، أو رؤية تقع في المنطقة الوسطى ما بين يقظة غير صريحة ونوم غير واضح. أدخل معها

في حوار، أضع أمامها تاريخي المرتبك وأسئلتي القديمة في جدار ناصع مثل شاشة سينما. الآن تتداخل كل الرؤى والحوارات والمشاهد التي يحملها هذا الواقع الماثل أمامي، مثل عمود نار أحيانًا ومثل مسرح صغير أحيانًا أخرى. تدخل في المشهد كل الأسئلة المبثوثة في الوقت القلق، فتبدو مثل قصيدة متشظية أو مثل فيلم متقطع.

يبدأ الفيلم حين هكذا فجأة، أجد نفسي وحيدًا داخل خيمة واسعة، صحبة غروب ساحر. يتوسط الخيمة موقد نار كبير، وعلى حوائط الخيمة تبين ظلال لرؤوس آدمية كبيرة. أقول لنفسي: ربما يأتي أحد الآن، الخيمة في صحراء، والصحراء في رأسي، ورأسي وسط غيمة وظلال الرؤوس الآدمية تتحرك في حوائط الخيمة.

كان جمر الموقد يلمع مع الهواء الخفيف الذي يدخل الخيمة من بابها الصغير، وكنت أرى ظلي الضخم متمددًا في كل المساحات حولي، بينما أرى رأسي معلقًا هناك في سقف الخيمة. فجأة يطل من باب الخيمة رجل طويل أسمر ونحيل، له وجه أليف كأني رأيته من قبل.

قلت: أهلاً.. تفضل.

قال: أهلاً بك.

دخل وجلس.

قلت له: من أنت؟

قال لي: أنا هذا الأحد الذي ينتظرك.

قلت: أنت تنتظرني أو أنا الذي ينتظرك!

قال: أنا حسن الذي تركته منذ عشرين عامًا.

قلت وأنا أحاول التذكر متأملاً في ملامح وجهه المألوف: تشرفنا يا حسن.. كنت مشغولاً والله.

أخبرني: أنا راعي الأغنام وحارس الأراضي والأحواش في هذا المكان.

وأضاف: أنت جئت هنا منذ سنوات ونصبت خيمة صغيرة ليلة واحدة ثم تركتها في الصباح.

قلت: تذكرت يا حسن.. وأذكر حين سألتك لماذا تحرس التراب.. وقلت لي إن هذا التراب بالملايين.

قال حسن: انتهت اللعبة والمزاودات وصارت هذه الأراضي بسعر التراب.

قلت: سبحان الله!

قال حسن: أنا مللت وأريد أن أذهب إلى أم درمان.

قلت له: أم درمان بعيدة يا حسن وسيارتي قديمة.

ضحك حسن وقال: الكفيل قال لي لا تستطيع السفر لبلدك إلا إذا أحضرت عاملاً مكانك.

قلت له: وأنا يا حسن مللت من الرياض وأريد أن أحرس مكانك.

شرب حسن الشاي معي، ثم غادر إلى خيمته، بعد أن سمع سيارات ضيوف خيمته، وأنا بدأت أرى وجوهًا غير مرئية تتوافد على المكان، رجال بملابس ثقيلة جلسوا في ما يشبه الحلقة أمامي، وبدؤوا يتحدثون عن أشياء كثيرة، يحكون عن الحب والدين والرؤيا والحلم، في مشاهد تصلح لفيلم مشوق، أحفظ صورهم وأحاديثهم في رأسي.

نسهر حتى وقت متأخر، وأنا مثل شبح يسبح في صحراء بجسد مرتعش وروح عميقة مليئة بالليل والظلام والوحشة والحنين والأسئلة والحكايات، أرقب حكايات ومشاهد مثيرة، كل حكاية مليئة بنفوس حائرة لا ترى سوى طرقات واسعة وشوارع سفر وحارات غربة وبيوت تنظر للحياة من ثقوب في الأبواب الموصدة.

كانت الظلمة تتكاثف، وكان الفيلم لا يزال يعمل، وكنت أسمع أحاديثهم وجدالاتهم المثيرة واضحة، وكنت أرى نورًا ضئيلاً يتحرك أحيانًا في أماكن مختلفة، لكن المكان بدأ يضيق، والنفق الذي وجدت نفسي فيه بدأ يضيق أكثر،

وأطرافي بدأت تموت بجانبي، والبيت الذي وصلته متأخرًا لم أعد أعرفه، صار شيئًا آخر، أحاول تذكر ملامحه القديمة، وأنا أتشجع بالهدوء والصمت لمحاولة الفهم، أتأمل دولاب الصالة الخشبي، أتذكر أحلامًا وأغنيات قديمة ومشاريع صغيرة غائبة عني منذ وقت طويل، وأراهم بهدوء يخرجون من وقتي واحدًا واحدًا، وهم يبتسمون بمرح، أشعر أن رأسي صار مثل قدر يطبخ الأفلام المستحيلة، بدأت أرى أني تحولت إلى عين تطل على ساحة غامضة من ثقب صغير في جدار غرفتي، قبل أن أصحو مليئًا بحكايات وعطش قديم.

2011

وقعت الواقعة

أخيرًا عدت إلى عزلتي الرنانة في بيتي، أغلقت الباب بمتعة وجلست على الكنبة أمام قنوات الفضاء أتفرج على البنات والأولاد الأكراد في كوباني، يدافعون عن وطنهم الصغير الذي احتله وحوش العصر. في هذا الوقت الممتع تذكرت صديقي الكردي القديم، ذلك الولد النحيف والطويل الذي اسمه "كامل"، قلت في نفسي بأسى: لن أرى صديقي كامل مرة أخرى. "كامل" الذي صاحبني شابًا صغيرًا في دمشق، ربما هو الآن يحارب في ريف كوباني، "كامل" الذي قال لي قبل سنوات طويلة: أنا من كوباني وأكتب الشعر بالعربي. ثم أخذني إلى عمائر الروس وسط دمشق لاستئجار شقة نظيفة كما يقول، انطلقنا من ساحة الأمويين مرورًا بالمزة، كان الوقت بعد المغرب حين تركنا سيارة الأجرة في مدخل حارة هادئة وخافتة

النور بشكل موجٍ وريفي عذب، دخلنا الحارة مشيًا على الأقدام، كانت كل الشوارع الداخلية في دمشق بإضاءات خافتة موحية، تجاوزنا عدة عمارات أليفة ونحن نلمح في مداخلها حدائق صغيرة وملاعب للأطفال ومقاعد خشبية للعائلات. فجأة توقف كامل، ثم رأيته يقف تحت إحدى النوافذ الواطئة ثم ينادي، تفتح الشباك امرأة ترحب بـ"كامل" وتسأله عن أمه، يقول لها "كامل": بخير تسلم عليكِ. ثم يسألها عن "عبود"، تقول له إنه في الدكان، يودعها ونذهب للدكان. كان الدكان مكان اجتماع لشباب الحي والأطفال. دخل "كامل" وتحدث مع "عبود"، ثم واصلنا المشوار إلى الشقة، أدخلني "كامل" شقة بسيطة ونظيفة وعرَّفني على خالته وأسرتها، جلسنا في الصالة نشرب الشاي، قال لي زوج خالته إنه يعمل على سيارة أجرة بين دمشق وبيروت، وقالت لي خالته: اعتبر البيت بيتك يا ولدي. ثم قالت وهي تنهض مبتسمة: كامل مثل ابني وهو طيب. قلت لها: أعرف. قالت: أنتم مثل أولادي. ثم خرجت مع أولادها وزوجها المُسِن إلى بيت شقيقها المجاور، كانت تحمل كيسًا فيه بعض أشيائها، وأنا سكنت في شقتهم وسط دمشق. كنت تعرفت على "كامل" في فندق بسيط قريب من ساحة الأمويين ليلة وصولي دمشق، كان يعمل في الفندق منذ سنوات قليلة كما يقول، لكنه يريد العودة إلى كوباني، لأن والدته تحتاجه بعد وفاة والده. ظل "كامل" يزورني يوميًا في الشقة بعد انتهاء نوبة عمله في الفندق، ندور معًا في شوارع

دمشق نهارًا، وفي المساء يتركني ويذهب إلى بيته أو إلى الفندق، ويعود لي في الصباح أو بعد الظهر. قلت له: هل تريد أن نزور كوباني؟ قال لي: إنها بعيدة هناك على حدود تركيا. قلت: إذًا نزور بيروت. قال: ممكن. ثم سألني ماذا أكتب، قلت له: عن أشياء صغيرة في حياة كبيرة يا كامل. ضحك "كامل"، فأهديته كتاب "إذعان صغير".

في وسط دمشق صادفت مكتبة واسعة جدًا، فيها كتب ومجلات قديمة وأشرطة قديمة لفيروز ووديع الصافي وفهد بلان، اشتريت أعدادًا من الكرمل وإبداع والمسرح العربي وأشرطة منوعة، ثم صعدنا جبل قاسيون نتفرج على دمشق من علوٍّ يكشف ميادينها وبناياتها الجميلة، أذكر أنني كنت أقرأ كل ظهيرة في رواية "باولا" لإيزابيل أللليندي لحين وصول "كامل"، أسمع صوت جرس الباب فأغلق الكتاب فورًا، ونخرج إلى رحاب دمشق السارحة في متعة الحياة، الآن أتذكر فتختلط الذكريات مع الحلم والخيال، لكني لن أرى صديقي "كامل" مرة أخرى. رقم الهاتف الثابت في دمشق لا يرن، وكوباني ترقص الآن بعد تحررها من عصابات داعش، كوباني ترقص الدبكة الكردية وصديقي "كامل" بينهم بالتأكيد، يحارب ويرقص ويكتب الشعر بالعربي. رأيت "كامل" ذات ليلة ثرية جدًا مليئة بحكايات غامضة كثيرة، سألته: لماذا الأكراد حرروا مناطقهم والعرب عجزوا عن ذلك؟ قال "كامل": لأن مسؤوليها وضباطها

الكبار يقاتلون في مقدمة الجبهات وليس من المكاتب. قلت له: صحيح.. أنتم تديرون حياتكم من الميدان ونحن نديرها من المكاتب، لهذا أنتم تتقدمون ونحن نتراجع. أفقت من الحلم وأنا على يقين أن المشاهد المؤثرة للبنات والأولاد الأكراد في كوباني لن تغادر ذاكرتي حتى أزور كوباني.

لا زال سؤالك يرن في أذني يا "كامل الكوباني"، لكن مزاج الحكاية بدأ يميل نحو شاعرية الشارع، ربما رقص وغناء على حالنا التي لا تسُر، مزاج الكتابة يميل نحو حكاية جديدة، ربما ممتعة ولذيذة، عن تفاصيل حياة انتقلت نوعيًا إلى منطقة أخرى جديدة بعد ثورات الربيع العربي. قصيدة الحكاية حين تركت وقتي القديم يرعى مثل خروف في ذلك الشارع الغامض الواسع بين دمشق والقاهرة، ثم يرسل لي ذكريات جديدة، كي أنام على حكاياتها وموسيقاها، أقرأ قصصي على المارة مثل بائع متجوّل، أعرض عليهم كل شيء، عاريًا مثل مسرحية صغيرة، قصة تبدأ بفتح صندوق أسراري وتنتهي بإغلاق صندوق أحلامي، أشعر معها أن روحي تفيض أحيانًا على ضفاف أخرى تتناثر على شكل شظايا، تنشد لحياة هادئة مثل حديقة فارغة هجرها الجيران وذهبوا للتسوق أو الحرب أو التفحيط أو الإرهاب، حياة مثل خلية نائمة لا تريد قواعد اشتباك مع أحد، أو حياة لا تصعدني مثل سلم نحو مآربها السخيفة، هذه

الكوابيس والأسئلة تركض في كل الدروب التي أعبرها سارحًا في معنى وجودي، في مكان ليس سوى قواعد اشتباك مريبة.

كانت الرحلة من الرياض إلى دمشق، ثم القاهرة، ثم العودة للرياض، أوائل التسعينيات كنت أرتب لحياة في مهب ريح موحية، ركضت وراءها، التقينا في تقاطع شارع غامض ما بين دمشق والقاهرة، جلسنا على كرسي خشبي، مقابل بيتي أو ربما مقابل بيتها، قصصت عليها رؤيتي، كنت أُدلِّك بجميع أصابع يدي اليمنى تلك المنطقة الصغيرة التي بين لحيتي وشفتي السفلى، قلت لها بهدوء وبأسى عميق: وقعت الواقعة، كانت بجانبي شبه مستلقية، نهضَت بنصف جسدها وقالت بخوف: يا ساتر! قلت: لم أكن أتصور أن يحدث هذا. قالت: توتر حركة أصابع يدك لا تُبشِّر بخير. وأنا خفت فعلاً من ملاحظتها. قالت: ما الذي وقع؟ قلت لها: الواقعة التي لم أتصور أن تقع. قالت: تكلم لو سمحت. قلت لها: لأول مرة في حياتي منذ ولدت أزهد في الحياة وأتمنى أن أموت. استرخت فجأة ثم قالت بهدوء واستغراب وسخرية: وما سبب هذه الرغبة؟ قلت: بدون سبب واضح. مالت بوجهها وجسدها عني بصمت وأنا شعرت أنها استهانت بكلامي، فحزنت حزنًا عظيمًا.. ونمت مثل خروف كئيب.

وفي المساء كنت أغني في الظلام دون بهجة، ومصحوبًا بخوف شفيف، لم أكن أستطيع التخلص من تلك الحالة

الموسيقية، لذلك قلت لها: أريد أن أحبك هكذا بكل بساطة، بكلمات لم تُقل حتى الآن، وبنار لم تشتعل حتى الآن، وبرسالة لم تصل من أحد، ثم أنني غنيّت بكلمات غامضة. الظلام يلف الغرفة، لا يهم إذا كان الظلام ظلامي أو ظلام الأغنية أو ظلام الخوف القديم الذي يربض في صدري. لكن الحجرة، هكذا بلا مقدمات، سقطت بجدرانها الورقية على كلمات الأغنية، في مشهد سينمائي مؤثر، وأنا استسلمت لنوم أبدي، موت مبكر، محرومًا من كل ذكرياتي، ومنذ ذلك الوقت تركت عادة الغناء في الظلام. قررت الإفصاح عن مشاعري دائمًا في الهواء الطلق، بطريقة سلمية، أمام الناس، حتى لا أموت مرة أخرى مَيْتة مجانية، بلا جماهير، فلماذا أحبس أنفاسي وخوفي في صدري، وأنا أشعر أن الكرة الأرضية، تسكن في صدري؟!

2015/2

سيناريو صغير

كانا يجلسان على رمل الشاطئ، تحت مظلة كبيرة من سعف النخل، قريبًا من البحر، الناس هنا قليلون والليل على وشك البرودة، وهو يحاول أن يوضح لها موقفًا مهمًا.

قال لها: أنا متعب.

قالت: حين ترى أبعد نقطة في ظلام البحر سوف يزول التعب.

قال: ربما.

نام على ظهره وراح يتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم كأنها قبة سوداء.

سألته: لماذا جئت إلى هنا؟

قال: المكان قريب من بلدي، كما أن التكاليف قليلة.

أكملت: هل هربت من مشكلات معينة؟

قال: ربما.

سألته: وهل أوحت لك هذه المدينة البحرية الصغيرة بشيء؟

قال: هنا أستطيع أن أرى الصورة التي تركت من البعد.

أكمل وهو ينظر في عينيها اللامعتين: الرؤية من البعيد تمنحني القدرة على رؤية التفاصيل الصغيرة بشكل أعمق وأوضح.

سألته: ولماذا تحتاج إلى رؤية التفاصيل الصغيرة؟

قال: إنها أفضل طريقة لرسم الصورة.

سألته أيضًا: ولماذا تريد أن ترسمها أصلاً؟

قال: لكي أحاول فهمها.

قالت: ولماذا تريد أن تفهمها؟

قال: لكي أفهم ما يدور حولي وما يدور في رأسي حول ذلك.

قالت: ولماذا كل هذا التعب والبحث؟

قال: يحيط بنا واقع غامض وفوضوي في كثير من جوانبه، واقع مليء بالتناقض وعليّ أن أتفهمه، وهنا الكارثة.

كانت تبدو فَرِحة بهذا الحوار الصريح والجديد في حياتها، فأرادت أن تتواصل بنفس الروح المتشوقة.

قالت: ماذا تحب في الحياة؟

قال: أحب كثيرًا أن أكون حُرًّا في طريقة فهمي لها دون سلطان عادة أو تقليد.

سألته: كيف؟

قال: لا أريد أن أرتبط بطريقة تفكير سائدة عن الحب مثلاً أو عن أي شيء آخر في هذه الحياة.. أريد أن أتعامل مع الحياة بشكل جديد.

سألته: ثورات صغيرة من أجل التجديد؟

قال: ربما!

قالت: ماذا يعني لك الحب بكل تجرد وحرية؟

قال: يعني حب الحياة بكل ما فيها، أو حب ما أريد منها بلا قيود.

قالت: ولهذا هربت من حياتك إلى هنا؟

قال: ربما.

لا زالت فَرِحة بأسئلتها. رأى ذلك واضحًا من خلال عينيها المبتهجتين وغير الجادتين، كان يراها على وشك أن تضحك مع كل سؤال، وكان يشعر بعدم الرغبة في الإجابة كلما لاحظ ضحكتها العفوية على وشك الانطلاق.

كانت تحاول أن تفهمه، أو تفهم ذاتها.

لكن المُخرِج أشار عليهما بالتوقف وإعادة بعض المقاطع غدًا.

أكملا هذا "السيناريو" الصغير من "فيلم" الصورة من البعد، بعد تعب وجهد كبيرين.

في الطريق إلى الفندق مشيا على الأقدام الحافية، كاشفته أنها متشوقة لإكمال الحوار معه، عن نفس الموضوع في مكان آخر، بعيدًا عن عيون "الكاميرا".

قال وهو يبتسم: في غرفتي الليلة.

قالت: بل في غرفتي لأنك ضيفنا. وأضافت: ستكون سهرة طويلة وعظيمة.

قال: موافق.

حين دخلا الفندق التفت إليهما المخرج، بعد أن بدأ يشك في شيء ما، قائلاً وهو يبتسم: التصوير غدًا في الصباح الباكر.

قالت البطلة ضاحكة بصوت لا يسمعه المخرج.. وقد عثرت على حبيب ضائع: في المشمش يا أستاذ.

2012

مقهى في حي الغدير

قرأت مرة في أحد مقاهي حي الغدير عن "شفق" التي رأت الملائكة، في حانة بظاهر سمرقند، التي ما زلت أحلم برؤيتها، والرؤية أيضًا عن "أيلا" الجميلة المسكينة التي رأت حياتها مثل مياه راكدة، حياة عادية ورتيبة دائمًا، فانفجرت روحها مثل فقاعة. كانت البداية مع قطعة من الحجر سقطت في بحيرة، ولهذا فلم تعد البحيرة هي ذاتها مرة أخرى، لهذا وجدت أن حكايتي مع الولد التركي تشبه حجر بحيرة "أليف شافاك".

خرجت من المقهى ظهرًا، حين أخبروني أنه على وشك الوصول، لكنني حين رأيت الملائكة تحف بسريره الصغير، وهو يخرج من الباب الواسع، صحبة ابتسامة الممرضة الفلبينية الأنيقة، حيث كان قد وصل في السابعة وخمس دقائق من مساء يوم الأربعاء العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2012،

شعرت بحياة تتجدد من خلال دفء غريب وهادئ يغمر الروح والمشاعر، قلت: وصل الولد الخالد. تذكرت حكاية صغيرة، إنه في لحظة تاريخية عصيبة في حياة الأمة العربية، قبل سنوات قصيرة، وصل "محروس" إلى الرياض تحفُّه الملائكة، أرسله لي الصديق المبدع "وحيد الطويلة" من الدوحة قبل ثورة 25 يناير. كان "محروس" بين الحياة والموت، لكنني استطعت تقليبه على ظهره ثم على بطنه، لكي أحاول فهم حكايته بالضبط، فاكتشفت أنه حي. إنه "محروس" بطل رواية المبدع العربي المصري وحيد الطويلة "أحمر خفيف".

نظرت للولد الذي قدم توًّا، شعرت أن الملائكة تحف بالوقت من كل جانب، كان وجهه مضيئًا، وكنت أرى فيه نورًا عميقًا تصاحبه رغبة نوم عميق، كان ينظر للمحيطين بعربته الصغيرة من نساء وأطفال بانبهار وغموض، ربما كان يرانا مثل ظلال أو مثل أضواء خافتة تهتز، وكنا نراه مثل قطعة لحم صغيرة حمراء ملفوفة، في بياض يليق باللحظة المبهجة المربكة والسارحة والهائمة، التي وضعنا فيها قدوم سموِّه الميمون. رأيته مثل رجل صغير، كان حجمه صغيرًا جدًا بوجه مدور وشعر رأس قليل وعينين فيهما لمعة ساحرة، كأنه حجر صغير سقط في بحيرة وقتنا، فلم يعد وقتي هو وقتي الذي أعرفه، ولم أعد أنا الذي كنته قبل سقوط هذا الحجر الأصيل، وكنت أسرق اللحظات، لأفكر في مسألة سحر تكوُّن مثل هذه الكائنات

اللذيذة، منذ البداية، حتى لحظة الوقوع في كمين جاذبية الأرض.

عدت للمقهى مبتهجًا أبحث له عن اسم، كنت أريد أن أسميه خالد، شعرت أنه سيفرح بهذا الاسم الخفيف بمعناه الخالد، لكنهم سمّوه تركي في غفلة مني، حين كنت سارحًا في تأمل طفولة وجهه وروحه الجديدة. قلت لا بأس، فلهذا الولد التركي سأخترع قواعد لعشقه مثل نص جديد، كما حاولت "أليف شافاك" مع أحبابها وعشاقها، وقلت إن هذا الولد التركي سيُحرِّضني على زيارة إسطنبول مرة أخرى، ومنها إلى حبيبتي سمرقند، صحبة هذا الولد التركي الجديد، الذي يمكن أن يقال عنه إنه ولدنا الجديد، لكنه قد لا يكون كائنًا مؤجلاً بعد أن دشَّن الشعب العربي الجديد ربيعه الأسطوري الساحر.

2012/12

ليلة غاب فيها القمر

في ليلة معتمة غاب فيها القمر، أفاق من ألم كوابيس طويلة أرهقت روحه المرهقة من ظروف كثيرة محيطة به، فوجد نفسه دون تفكير يقرر إطفاء ذاته المسكينة في هذا اليوم التاريخي. قال في نفسه: بدأ إخراج الفيلم العظيم.. ثم خلع ملابسه ولبس قميصًا طويلاً بلون أبيض فصار مثل ممرض حزين، خرج إلى البلكونة، وضع الكرسي على حافة السور الحجري القصير وهو يفكر بحزن في حبيبته التي لم يتعرف عليها جيدًا، صعد على الكرسي ورفع يديه إيذانًا ببدء العملية، نظر إلى الشارع من هذا العلو، وقبل أن يرمي جسده المسكين لمح شبابًا يعرفهم وبعض الجيران يقفون تحت العمارة، رفع أحدهم رأسه وأشار إليه، رفعوا جميعًا رؤوسهم باندهاش وخوف، بدؤوا يلوحون له بأيديهم ثم يهتفون

ويغنون، وأحدهم رفع صوت الموسيقى من سيارته لتصدح ميادة "أنا بعشقك"، شعر بجمال المنظر فانتعشت روحه التي كانت على وشك الانطفاء. قال في نفسه: هذه جماهيري وعليّ الاستماع لها وتأجيل هذا المشروع الكئيب. لكنه فجأة شعر بالغثيان ثم الدوخة ثم الإغماء، فهوى هكذا خلسة من البلكونة إلى الشارع مثل فوطة بيضاء مبللة بالماء، لا يدري بعد ذلك ماذا حدث، هل تلقفته أيادي أصدقائه الجدد وأذرع جماهيره الغالية، أم أنه سقط على الأسفلت فانكسر مثل زير قديم وقع من بلكونة فقيرة؟

بعد إغماءة طويلة شعر أنه ممدد ويتحرك في مكان ضيق، ورائحة التراب الرطب تملأ صدره، نهض بصعوبة ودفع السقف بيديه، رفع صوته بلا صدى. قال في نفسه: لا فائدة من الناس، وعليَّ أن أعتني بنفسي. واصل دفع السقف فانهال التراب ورأى النور، وقف يتأمل المكان الغريب ثم خرج يبحث عن روحه التائهة. مشى في مكان مظلم ورطب وموحش، نفض ملابسه، واصل المشي في أرض خلاء حتى رأى بابًا صغيرًا، اقترب منه طرق الباب، لم يرد أحد، فعاد للمشي يحاول الخروج من هذا المكان المخيف الذي يشبه المقبرة، مشى دقائق مليئة بالخوف والهواجس السوداء، رأى فيها وجوهًا قديمة يعرفها تذهب وتغيب مثل أشياء غير مرئية فتنقبض روحه. استمر يمشي، فرأى أمكنة خضراء ورائحة الزهور تعبق

في الهواء فتزدهر روحه وتزدهر رؤية جديدة في رأسه. واصل المشي فتبخرت هذه الأمكنة وصارت مثل سراب، وحلت مكانها شوارع ضيقة ومستنقعات وروائح رطوبة وعفن.

سأل نفسه: هل هذه هي الجنة أم النار؟

ظل يمشي حتى دخل حارة مليئة بالناس، دخل مثل رجل غريب، رأى محل بقالة فركض له، وحين وصله سالمًا معافى جلس على كرسي خشبي جوار باب محل البقال، كان جائعًا وعطشان وبلا ذاكرة، والمحفظة والجوال ليسا في جيبه. الرجال والنساء والأطفال يدخلون البقالة فرحين ويخرجون منها محملين، والغريب أنهم لا يلتفتون له، كأن لا أحد يجلس على هذا الكرسي الخشبي القديم، أو ربما أنهم لا يرونه فعلاً، ربما صار شيئًا غير مرئي وهو لا يدري. ترك الدكان وظل يمشي في الحارة مثل شبح، يبحث عن حارته، يبحث عن بيت فقد أثره منذ أزمنة قديمة، يمشي في الطرقات الضيقة، يتفرج على البيوت وأبوابها المفتوحة، حتى وجد ما يشبه باب بيتهم القديم، دخل البيت الغامض كأنه في حلم. تلفَّت ولم يجد ظله على الجدران، استراح بيأس وتعب على كنبة قديمة ومغبرة، ظل وقتًا طويلاً وهو على وشك النوم، نظراته الناعسة معلقة في الجدار أمامه كأنه ذئب جريح، يشعر بما حوله على نحو خفيف جدًا، ويفكر في عمره الذي مضى وانقضى دون متعة صريحة لا لبس فيها، يتذكر مُتعًا قليلة كانت عابرة، أو

يهجس بتلك المتع التي أفسدتها عليه نوائب الدهر، وبعد حزن صغير ويأس جليل نام بخجل، نام بخجل ووجل، وظل في المنطقة الوسطى بين النوم واليقظة مثل قط حَذِر، وبعد دقائق دخل في ملعب النوم، دخل مثل إنسان يدخل البحر للمرة الأولى، نام بكل جوارحه، نام كأنه ميت، ثم فجأة دخل في لحظة حلم دافئة وعذبة وحالمة، تلك اللحظة التي كان ينتظرها منذ زمن طويل، دخل في مشهد غاية في اللذة، وظل مستمتعًا باللحظة وهو بقربها، يشعر بحرارة جسدها اللذيذ. ولأن الحياة لها مفاجآتها المزعجة أحيانًا، فقد أحس بضيق في التنفس، ومعه أحس بألم مفاجئ في صدره، ثم شعر بدوار مؤلم، نهض بنصف جسده مختنقًا بريقه وهو يهجس بضغط الدم، لم يكن يفكر في شيء لأن تنفسه كان معلقًا، يحاول أن يبتلع ريقه الناشف ليتنفس براحة، مؤجِّلاً التفكير في الحياة والموت وما بينهما من مشتبهات. سعل بقوة، تنفس بهدوء فارتاح قليلاً، حاول العودة للنوم مرة أخرى، أغمض عينيه وراح يبحث عن تلك اللحظة الدافئة واللذيذة، ظل يبحث عنها عبثًا، لكنها كانت تبخَّرت، ذهبت في حالها، تبحث عن نائم جديد، سليم ومعافٍ، لا يتركها ويصحو مختنقًا بريقه.

2017/2

يمضي مثل عابر سبيل

قرأت خبرًا ممتعًا عن الحياة الجديدة، مادة مظلمة فوق رؤوسنا العظيمة، هناك في الآفاق البعيدة كيان موحٍ ومعتم يريد أن يخبرنا شيئًا طازجًا وجديدًا، شيئًا يناقض نظريات الجاذبية الكونية، حياة هادئة تنادينا، شيء غامض وموحٍ مثل قصيدة سردية، يقول لنا إن الحياة متجددة دومًا، فهل سوف نذهب لذلك الكيان بعد أن نسلم أرواحنا أم أنه الذي سوف يأتي إلينا؟ لكنني الآن على أرض الواقع المتغير والمتبدل مثل ماء نهر، أتأمل في الأشياء المحيطة، أوراق، كتابات، أفكار، تواريخ، أحلام، هموم، كأنها أطلال متناثرة، أو أجساد ضائعة مستسلمة، داخت تحت ضربات قَدَر موجعة، أطيل النظر فأرى فيها حياة جديدة تريد أن تنهض، حياة جديدة بداخلها ألسنة نار لا أراها، لكن أشعر بحرارتها تلفح وجهي، كل شيء

يريد أن يتحرك أو يموت ميتة أبدية، لهذا أحاول بوهن أن أفتح بعض الأعين الغافية، أو أقترب قليلاً لأرى ألسنة النار قبل أن تستقر أو تخمد إلى الأبد. كنت في غفوة يقظة حين حلمت بتلك الحياة الضوء، يحملني كظل إلى زمن بعيد إلى لوحة تحلم بنص آخر، نص يدق الباب مثل روح موحية، فإذا قمت له أفتح الباب أراه يمضي مثل عابر سبيل أو مثل قطط آخر الليل الحزينة، نص أعرفه ويعرفني منذ زمن بعيد، يأتي مثل تيار هواء صغير يمسح وجهي ببرودة، أو يأتي ناعمًا مثل موسيقى، أو حدقة في جدار تطل على وقت جديد، نص مثل لوحة أو برتقالة أو ضوء أو حلم أو صباح يفيق باكرًا ثم يمضي سريعًا، أتقدم إلى الريح الغاضبة مثل نِدٍّ يخفي ضعفه، أسكن في ماضٍ وأعيش في حاضر مضى، أسكن روحًا مفككة أجمعها حينًا في قبضتي وأبعثرها في زمن جديد.

لا زال في ذهني تلك الحصاة حين رميتها في الصحراء القريبة من بيتنا، كتبت عليها اسمي المكسور لغة وروحًا، وحين كبرت قليلاً وضعت أفعالي في كفتي الميزان، تأرجحت إحدى الكفتين طويلاً. أفقت فلم أعرف المكان، ولم أعرف أي ميزان هذا، كان الميزان يتأرجح، وقفت أمامه، درت حوله طويلاً، اخترت إحدى الكفتين فوجدتها قد ارتفعت، لكني لم أعرف هل هي كفة الخير أم الشر، تركت الميزان ونمت، وفي داخلي كبر إحساس أني لم أكن عادلاً مع نفسي في أشياء كثيرة، يقابل

ذلك إحساس آخر بأني واجهت، أيضًا، أفعالاً غير عادلة، فهل تساوت الكفتان؟

لهذا أتذكر تلك الحكاية الصغيرة والقديمة، حين كانت الصغيرة على وشك نوم وهو كان على وشك انتشاء، قال لابنته كأنه يقصص رؤيا: بعد أحداث الحرم السوداء، انغلق المجتمع على ذاته، في صندوق أسود، عظيم الأسرار، وغرقت المرأة في سواد هائل، لا نعرف كيف كانت تتنفس من خلفه، وصارت الموسيقا حرامًا يُستَمَع لها في البراري خلسة أو في غرف مغلقة، وصارت الحياة متقشفة وغامضة. وبعد غزو الكويت انفتح جزء من الصندوق فشممنا رائحة موسيقا خفيفة، تنبعث من أبواب موارية لبيوتهم الحزينة، وخرجت المرأة من بعض عتمتها مجروحة الروح، فارتفعت عصا الوعاظ عالية تطاردها وتطاردنا في كل مكان. وبعد أحداث سبتمبر انكسر باب الصندوق الأسود فتفرق الجمع، هربت المرأة من بؤسه وهرب الواعظ إلى الإرهاب، وبدأت أشياء أخرى تتحرك على إيقاع موسيقا حرة، فانهمرت الأسرار الرائعة لأرواحنا الجميلة التائقة للجمال والحرية والثقافة والمرأة والفن والسفر والإبداع. انهمر سيل روايات عطشى للحرية وللحب وضد الإرهاب والفساد والغموض، وبعد سنوات انهمرت ثورات، ثم ثورات مضادة، فنامت ابنته الصغيرة، وهو يواصل هذيانه، فصمت يتأمل لوحة قديمة معلقة على الجدار الذي أمامه، قال هكذا

تسربت حكايته، ثم انطلق في متعة خيال النص المفتوح على لوحة لها روح الأشياء، روح تاريخ يختصر عمره في هذا البيت القديم.

قال في نفسه وهو يتأمل اللوحة القديمة على الجدار المقابل له: أنت بحاجة إلى نوم طويل من أجل رؤية صافية. بحاجة إلى أن تبتعد عن الصورة قليلاً لكي تراها بشكل أكثر وضوحًا. بحاجة إلى تلك الموسيقى القديمة التي كانت تعيد لك روحك وبهجتك الطفولية الحالمة، تعود للوراء تسأل حالك عن أحوالك، تسأل أوقاتك عن عُمرٍ مرتبك، وعن قلبك المُعلَّق بقبضة مرتعشة، هل تستطيع أن تسمع تلك الدقات الخافتة والمتتالية، القادمة من أغوار سحيقة في صدرك؟ هل تستطيع أن تلمس مشاعرك الغامضة؟ كنت ترى كما لو أنك تطل عليهم من ثقب صغير في الجدار الخارجي لبيتك. كانت الظلمة تتكاثف وكنت تسمع أحاديثهم واضحة، يفتشون ويتحدثون ثم يصمتون، ثم فجأة تأتي أحاديثهم من مكان آخر في البيت، ربما من غرفة الجلوس أو غرفة النوم، وكنت ترى نورًا ضئيلاً يتحرك أحيانًا في أماكن مختلفة، لكن المكان بدأ يضيق والنفق الذي وجدت نفسك فيه بدأ يضيق أكثر، وأطرافك بدأت تموت بجانبك، والبيت الذي تعرفه صار شيئًا آخر تحاول تذكر ملامحه، وأنت تتشجع بالهدوء والصمت لمحاولة الفهم، تمتد عيناك إلى دولاب الصالة الخشبي، تتذكر أوراقك وكتبك

ومشاريعك الصغيرة المؤجلة، وفجأة تراها بهدوء تخرج من وقتك واحدًا واحدًا وهي تبتسم، وأنت ترى أن في داخلك أسئلة قديمة، تظن أنك تحولت إلى ثقب صغير في جدار، يطل على ساحة الإجابات الغامضة.

2008

التدريب على الخروج من الوادي

بعد هذا التمرين شعرت أنني ربما جاهز لغفوة طيبة، كنت في المنطقة الوسطى بين يقظة غير واضحة وغفوة مستعصية، حين رأيت أنني وسط ساحة كبيرة معروضًا للبيع بالمزاد، كنت وسط الزحام أفتش عن عسكري يحميني من جشع هؤلاء التجار، حتى وجدته أخيرًا وناديت عليه، لكن العسكري تجاهلني، ومثَّل أنه لم يسمعني ولم يرني، قلت في نفسي: ربما أن أحد هؤلاء التجار من معارفه. انتظرت أن يسرح أحد هؤلاء الذين يقبضون على يدي، لكي أطلق ساقَي للريح، انتظرت طويلاً لكن دون فائدة، حتى استجاب العسكري ورأيته يقترب من المكان، وكانت الصدمة، حين سألهم: بكم هذا الآدمي؟ وهو يشير إليَّ، فقررت أن أمثل دور الحمل الوديع حتى يثقون بي، أغمضت عيني كأنني نائم، وفجأة استيقظت فوجدت نفسي في

مكان والظلام العميق يحيط بي من كل مكان، قلت: أين أنا؟ رفعت رأسي، ورأيت بصعوبة باب الحمام المفتوح، ويخرج منه نور ضئيل فتذكرت أين أنا، في هذه اللحظة أظن أنني اقتربت من النوم، غفوت غفوة لذيذة، وأنا ربما كنت أتذكر حلمًا قديمًا، كنا خرجنا بصحبة الأهل إلى البراري القريبة، غرب الرياض في طريق مكة، رأيت شابًا يرعى الغنم في الصحراء، مشيت خلفه من البعد، أرقب الشاب وأرقب قطيعه بدقة، ظللت أرقبه وهو مُتَّجه للنزول بالقطيع إلى وادٍ صغير مليء بالعُشب والشجر، استرحت على صخرة واطئة، وفي لحظة غامضة رأيت أن من يرعى الغنم هو أنا وليس أحدًا سواي، صدقت الفكرة وشعرت أنها تجربة حقيقية أعيشها، وجدت الفكرة تتلبسني واقعًا غير مشكوك فيه، فنزلت بالقطيع إلى الوادي، وظللت هناك قرابة الساعة شبه نائم، حتى شبعَت الأغنام وأوشكت الشمس على الغروب، قلت لأغنامي: حان وقت العودة، علينا من الآن أن نسعى للخروج من هذا الوادي اللعين، الذي يُصدِر أصواتًا غريبة. كنت متعبًا جدًا بسبب قوة أشعة الشمس، لكنني تحاملت على نفسي، توجهت إلى مؤخرة القطيع، وبدأت أدفع الأغنام للخروج والصعود إلى أعلى، إلى الصحراء الواسعة، بدأت الأمور تسير كما أريد، وتوجه الحشد الحيواني الرائع نحو منصة الخروج، وهو منحدر يشبه البوابة، وبدأت الحيوانات وبالذات الخراف والشياه تصعد فعلاً إلى الأعلى في منظر مهيب ومبهج ونبيل، بينما كانت فئة التيوس

والماعز تقوم في الطريق البطيء للصعود بحركات مشاغبة ورقص ليس لها داعٍ، ولم أكن في حالة تسمح بتقبلها، وفي واقع الأمر، أرى أن الشبع أصابها بنشوة جعلها تأتي بحركات تشبه الرقص، وهي في نهاية الأمر حيوانات، علينا أن نصبر عليها قليلاً، هكذا حدثت نفسي، وأنا أحاول قيادتها برفق نحو الأعلى، لكن هذه الحركات غير المقبولة من التيوس بالذات، أبطأت من عملية النفير، وأفسدت خارطة الطريق، للخروج الآمن من هذا الوادي الموحش، كانت التيوس والماعز تتقافز هنا وهناك أو تتناطح، أو تصعد المرتفعات الصغيرة على جانبي الوادي، ثم تنزل بحركات بهلوانية غريبة، جعلتني أدعو الله لها بالشفاء من هذه الحالة الهستيرية المتخلفة، فهذا ليس وقت المزاح والعبث. حاولت تأديبها ولم أستطع، ركضت وراءها لكي تلحق بالقطيع المؤدب من الخرفان والشياه، لكنها كانت في ذروة الحالة الهستيرية، وإمعانًا في الأذى الذي سببوه لي، رأيت تيسًا صغيرًا يصعد جبلاً صغيرًا ثم يجلس هناك في غار واسع على قوائمه الأربعة، كأنه يستعد لتصوير مشهد سينمائي مؤثر، في الوقت الذي كانت فيه بقية التيوس والماعز على وشك الهدوء خوفًا من عصاي الطويلة، وبدأت تأخذ طريق الخروج. أخذتُ حصاة ورميتها على التيس الصغير، فرأيته بكل سخافة وبرود يتأمل الحجارة بصمت، قلت له انزل، ولم يرد، كان فقط ينظر في وجهي بلا اهتمام. رميت عليه حصاة أخرى، فاكتفى بمراقبة الحصاة وهي تتدحرج جواره، في هذه اللحظة

كان حولي ماعز صغيرة تدور وتلعب، فكرت أن أرسلها له لإخراجه من الغار، فخشيت أن تعجبها الفكرة وتمكث معه هناك، قلت لا يوجد حل سوى أن أصعد إلى هذا المتمرد السخيف، صعدت بصعوبة، وصلت بعد تعب إلى الغار، أمسكت أذن التيس بيدي اليمنى، حرك التيس رأسه فانزلقت أذنه من بين أصابعي وفلتت، ربما بسبب تعرق يدي، مسحت يدي في ملابسي حتى أصبحت كفي أكثر خشونة، أمسكت أذنه اليسري بيدي اليمنى من جديد، حرك التيس رأسه بقوة، ثم أداره للخلف بعنف، لكن كفي ظلت متشبثة بالأذن فاضطر التيس للوقوف على قوائمه حتى لا تلتوي رقبته، وقف ونزل معي وهو صاغر، وفي ذروة هذا النجاح العظيم، انتبهت فوجدت نفسي مستلقيًا على الصخرة، والناس يبحثون عني في البراري القريبة.

2012

رحلة مشي في البراري القديمة

بدأت في كتابة سيرتنا جميعًا من ذلك المساء المغامر والقديم، مطلع القرن الماضي، حين خرج أربعة فلاحين من إحدى القرى القريبة شمال الرياض، خرجوا من حال الجوع، يبحثون عن حياة جديدة، كان معهم قربة ماء وكيس من التمر الناشف، يعيناهم على قَطع أكثر من مئة كيلومتر وسط الصحراء مشيًا على الأقدام.

في القرية التي خرجوا منها، قال الناس إنهم ذهبوا للكويت للعمل في البحر، وقال آخرون إنهم ذهبوا ليعملوا في مزارع الرياض الوفيرة الماء، لكن أغلب رجال القرية الذين أنهكهم الجوع مع عوائلهم، لم يفكروا بالرحيل وترك مزارعهم الخاوية وأراضيهم الجافة، كانوا يُصلُّون لربهم كل مساء، من أجل أن يمنّ عليهم بالمطر، حتى نسوا أمر هؤلاء الرجال، الذين غادروا

دون رجعة، كانوا يدفنون موتاهم الذين قضوا بسبب الجوع، ثم يلجؤون إلى المسجد، للدعاء من جديد.

في الأيام الثلاثة الأولى، لمسيرة الرجال الأربعة كانوا أكثر حماسًا وأكثر قدرة على قطع المسافات الطويلة، بسبب عمل سنوات طويلة أكسبهم القوة والصبر، ساروا ساعات طويلة، كانوا أقوياء، وكان الحلم بالحياة الجديدة في مدينة الرياض يهز مشاعرهم، وهم يحثون الخطى ليل نهار.

في اليوم الرابع، مساءً، استراحوا تحت شجرة كبيرة، شربوا وأكلوا من التمر الناشف ثم ناموا حتى الفجر، صلّوا، ثم واصلوا المسيرة، حتى نفد التمر اليابس ولم يبقَ سوى قليل من الماء، ظلّوا يمشون حتى شعروا أنهم قطعوا أكثر من نصف المسافة، يرتاحون قليلاً ثم يواصلون المسير، دون أن يأبهوا لأصوات غامضة تحيط بمشيهم، قادمة من آخر ظلام الصحراء، يمشون طويلاً بأحلام كبيرة، وأحزان كبيرة على فراق الأهل والأحبة، وحين حلّ بهم التعب العظيم، ارتاحوا، بعد أن ارتسمت على وجوههم علامات التعب والبؤس والقلق، فقد نفد التمر ونفد الماء ولا توجد قرى مجاورة يمكن أن تروي عطشهم القديم، حتى الكلام فقد قدرته على التعبير، وصارت نظراتهم لبعض، أو لهذا الليل البهيم في الصحراء، هي لغة أخرى قاسية وخائفة، نظرات مليئة بالخوف، وكأن الخوف

يكاد يتحول إلى شيء أو رائحة، تدور حول أرواحهم التي فقدت معنوياتها، وحول أجسادهم المنهكة.

وفي لحظة غامضة، نظر الرجل الرابع إليهم نظرة غريبة، كان مستلقيًا غير بعيد عنهم، لكنه شمّ رائحة ما مخيفة، فنهض واقفًا، وركض بكل ما تبقى له من قوة، ركض مسافات طويلة حتى غاب عن أصحابه الثلاثة في ظلام صحراء نجد العريقة. لقد شعر هذا الرجل، بأن أصحابه الثلاثة، وهم أصلاً أبناء عم، يفكرون في أكله، وفي اللحظة التي داهمه فيها هذا الشعور، فقط بادلهم نظرات وجلة وغامضة ومريبة، ثم أطلق ساقية للريح، بينما كانوا في حيرة من أمرهم، كيف عرف هذا الرجل، بما كان يدور فعلاً في أذهانهم، بشكل غير جاد.

وصل الرجل، بعد أن شارف على الموت إلى قرية صغيرة، كانت بالنسبة له حياة جديدة، بعد أن رأى الموت بعينيه، وهو يركض هذه المسافات، جائعًا وظمآن، استقبله أحد رجال القرية، حين سقط هامدًا جوار حائط مسجدها الوحيد، قدم له الماء والأكل، وطلب منه أن ينتظر حتى صباح الغد، لأن هناك راحلة سوف تذهب إلى الرياض، التي صارت على مسافة غير بعيدة.

في الصباح انطلقت الراحلة فعلاً، وصلت الرياض بعد يومين، فأحس الرجل أنه وُلِد من جديد، فنام عدة أيام متتالية في مكان اسمه منفوحة جنوب الرياض، بلد قديم

سكنه الشاعر الأعشي وقبيلته، بعد ذلك عمل في مزرعة مقابل أكله وشربه ونومه، وحراستها أيضًا، فبدأ يفكر في أهله الذين تركهم في قريته، أما رفاقه الثلاثة، فقد مسحهم من ذاكرته.

هذا الرجل تزوج فيما بعد واحدة من نساء الرياض، أنجبت له ولدين وبنتًا، وفيما بعد عملوا معه في نفس المزرعة عدة سنوات، حتى استطاعوا الانتقال من الرياض القديمة إلى وسط الرياض الجديدة في ذلك الوقت، إذ بنوا بيتًا من الطين، بعد استقرار الكثير من العوائل، عندما فتحت بعض الدوائر الحكومية والمدارس أبوابها، إبان حكم الملك سعود مطلع الخمسينيات الميلادية، ومن بعده الملك فيصل، وهنا تزوج ولده من امرأة قريبة لهم، نزح أهلها من الوشم إلى الرياض، فحمل والده راية العائلة بعد وفاة جدّه. عمل ساعيًا في إحدى الدوائر الحكومية، فبدأت العائلة تنتعش قليلاً، بعد سنوات من الكدّ والتعب والتنقل من بيت إلى بيت في حارات الرياض القديمة، لكن علاقتهم لم تنقطع بالأهل في القرية، إذ كانوا يزورونهم في الأعياد، من خلال سيارات النقل، التي تذهب للحجاز أصلاً.

2004

ثانيًا: قصص مختارة من كتب المؤلف

الأناشيد والناس*

في الفجر يمد نظره نحو مشهد النساء، يقترب من النافذة، يطل على السوق، يرى العباءات السوداء تتدفق في الشارع الصاخب، الشارع الضيق الطويل، حتى إذا ما اكتملت دقات السادسة صباحًا، كانت النساء قد أخذن أماكنهن صفوفًا طويلة على جنبات السوق تحت جدران البنايات القديمة، يتحدثن بأصوات مرتفعة، ويُثِرن الغبار حولهن وحول الناس الذين يروحون ويأتون، كما لو أن عملهم هذا الذهاب وهذا الإياب. النساء اللاتي يشبهن الجراد العجوز بملابسهن الملونة وعباءات أجسادهن اليابسة، نساء بقدود مثل الأعواد، دقيقة وطويلة، وضحكات صاخبة فرحة، يفرحن ويبعن أشياء كثيرة،

* من كتاب أظافر صغيرة جدا.. مختارات فصول بالقاهرة 2000م

أو يضحكن فقط، ضحك كأنه شياطين صغيرة تخرج من صدورهن الهزيلة أو كلام ينبعث من حلوقهن مع رائحة اللبان. نساء ومع ذلك يضحكن بعمق، بعضهن جئن من القرى المحيطة وبعضهن جئن من الحارات المجاورة يبعن ويشترين، يبعن الخبز والتمر والحمام والتعاويذ ويشترين الأقمشة، نساء ورجال يتداولون أساطير شعبية ومقولات قديمة علقت بغبار الوقت، يبعن أشياء مسحوقة للمرضى في أكياس أو في علب فارغة لها رائحة الحناء وطعم اليانسون والحلبة، وكلها للمرضى، هؤلاء الذين فقدوا القدرة على مواجهة الحياة إلا بأرواح سوداء ويأس وقلوب معذبة، يقرأن عليهم الآيات، وينفثن الهواء من صدورهن المتعافية على الصدور الممروضة التي تبكي آناء الليل وأطراف النهار.

وإذ تميل الشمس إلى الغروب يأتي إلى النافذة ليحضر المشهد الأخير، مسيرة الناس وهم يغادرون السوق مخلفين وراءهم أناشيد وأغاني وصدى ضحكات وصخب وغبار، فلا يتبقى من ظلام الوقت سوى وجوه قليلة شاحبة يعلوها الغبار، بأصوات خافتة كأنها لأشباح تتحرك في ظلام، يُتِمّون عمليات بيع صغيرة في همس موجٍ.

يقف أمام النافذة، أمام أثر غامض لقصص أسطورية يتركها هذا المكان كل يوم، وعندما يهبط الظلام، يصعد إلى سطح البيت المترب، ينتظر أن ينام وسط حارة مخنوقة

الأنفاس، يحلم أن يعمل أو أن يُعمِّر بيتًا، يسافر في سماوات بعيدة ولا ينام، يستلقي في فراشه، وهو يشعر دائمًا برطوبة الجو الخانق، وحرارته. يدخِّن ويتأمل السماء كأنها كهف أسود، أو يتأمل أمه وأخته اللتين تنامان قريبًا منه، وفي الغالب يشعر بأخته التي لا تنام، يسمع حشرجات صدرها المريض، يلتفت إليها، يجدها تلتف إليه وتهمس:

- أريد أن أذهب معك هذا الصباح إلى الطبيب.

- أنتِ متعبة.

- مللت؛ أريد أن أخرج.

يتذكرها طفلة تركض معه في الأسواق، أو عندما تسرق البيض من أطباق البائعات، طفلة جميلة وطويلة بشعر قصير، أو يتذكر أيام الجُمع عندما يركضان إلى ساحة القصاص لرؤية السيف والسياف، يتذكر كل ذلك، وهو الآن يسمعها جواره بصوت مريض وحزن ناعم يبكي:

- لا تنسَ إذًا أن تحضر معك الجرائد ومجلات فنية.

- لن أنسى.

ثم يراها بعد قليل مع دُنو الفجر تقف بجسدها الهزيل كنخلة نحيلة، تمشي إلى الفتحة الواسعة المطلة على بيتهم، تقف طويلاً هناك جوار الجدار، وهو يتأمل جسدها الذي يبدو

كشبح وسط سواد الليل، يسمعها تسعل أو تبكي بصوت خافت، في هذه الهدأة العميقة، تبكي بصوت خافت ما يلبث أن يرتفع فيهز جسدها بكامله، تحت وطأة إحساس حاد بالمرض والملل واليأس، يقول لها بهمس: عودي إلى فراشك. لكنها لا تسمعه، ينهض إليها، إنه يعرف أنها تبكي من أجله، أو من أجل مرضها، أو من أجلنا جميعًا، من أجل الحارة التي تركها أهلها ولم يعد أحد يعرف أحدًا، ذلك الوقت الذي بدأت فيه تمرض أو تموت عندما قالت إحدى نساء السوق الوافدات: ابنتكم سوف تُوهَب حياة جديدة تليق بقلبها الطيب، اغسلوا جسدها كل يوم بأوراق الحناء ثم استعدوا لاستقبال ضيف حياتها الجديد. نفَّذت الأم هذه التعليمات، وقرأت معها سورة الفلق، حتى أصيبت البنت بداء الصدر. يقترب من أخته يضع رأسه على كتفها بحنو: غدًا سوف تشفين يا حبيبتي.

ها هو الآن يقف أمام السوق، يمد نظره نحو مشهد النساء الاحتفالي، يطل بحزن، ويتذكر أختًا مصدورة، وأمًا غالية، وبيتًا كان يضج صباحًا ومساء، بصوتين جميلين لامرأتين عذبتين، تركتاه وسافرتا إلى الله، بينما يتحرك تحته عالم صاخب بالرجال والنساء والأطفال والتواريخ والأساطير والتعاويذ والأمراض والذكريات، وآثار أصوات قديمة يسمع صداها بين الحين والحين في هذه الفراغات المجدولة من الحلم.

أظافر صغيرة وناعمة*

مهموم بنفسك والوقت والناس والحياة، وطابور من الأطفال ذوي القامات القصيرة جدًا والأجساد النحيلة كقردة جميلة، مهموم بأبيك الذي في الشوارع مثل طير منتوف الريش، يركض بكل ما يستطيع من أحلام قديمة، مهموم بتاريخك منذ الأزل، بالبحر الذي لم تره، وبامرأة تراها كثيرًا في ساعات نومك الطويلة، توقظك في نهايات الليالي، تتلو على رأسك سور الحلم والفرح والتحليق، فتستعيذ بالله من شر فتنتها، ومن شر بكائها العذب على صدرك المسترخي حد موت الأعصاب الباردة، مرعوب من الوقت، منذ أحنيت رأسك،

* من كتاب أظافر صغيرة جدًا.. مختارات فصول بالقاهرة 2000م

وكنت ترى طفلاً صغيرًا مقموعًا يريد أن يستيقظ من سبات طويل. هذا الطفل تراه جيدًا يركض في الشوارع والحارات، ويكتب على الجدران أسماء الأصدقاء. يبني بيوتًا من تراب، يركض في كل حارات المدينة، ويسهر الليالي الطويلة، يدخن ويشرب مضمَّخًا برائحة الوقت اللذيذ والرقص والنساء، وعندما يستوي لينام تقبض عليه بيديك الاثنتين، تحدق في وجهه جيدًا، وعينيه المشاكستين، تتحسس أظافر يديه، إنها تقتلك، توقظك في الليل من أجل أن تمارس عليك طقوسها فتثور، وفي النهار تحني رأسك للأشياء.

تفيق على وجه كظيم وقنوط، وأظافر قصيرة لطفل كبير يبعثر الأسئلة واللعنات، ثم تتذكر بكاء أمك، وخوف أبيك، أبوك الذي في الشوارع وأظافرك والأطفال وأعين تبحلق باستحياء في أظافر ناعمة.. ناعمة.

في الضحى تدخل ظلام الحجرة المستحيلة التي تعبق برائحة اليانسون والحلبة والليمون والنساء المريضات، تجلس على حافة السرير الأبيض تتأمل وجهها المريض. يد منثورة في اتساع السرير ويد على صدر الصغير، الذي قدم توًّا. تُقبِّل رأسها، ثم تفتح لفافة الصغير، تفيق أمه على صوتك، وأنت بصمت مريب تفتح اللفافة، تكشف لك قطعة لحم حمراء ساخنة بداخلها أعين صغيرة تبحلق في المكان، تخرج الكفين الحمراوين، تنظر إليهما، ترفعهما براحتك، تنظر في أظافرهما،

تبتسم، تلف الجسد مرة أخرى، تعيد أعضاءه إلى مكانها ثم تبادل أمه نظرة وامضة، وتخرج فرحًا كأنك ترقص، تدخل ظلام الغرفة القديمة، ترفع كفيك وترى في أظافرك شكلاً لأبيك الذي في الممرات البعيدة، أبوك الذي في الأزقة القديمة يحني رأسه وتاريخه للأشياء.

متتاليات ليلة البارحة*

نمت جائعًا وظمآن، قرأت في كفي غزالة، وأيقظتني، فضحكت ملء فمي: يا وجوه قاع الكأس. صحوت جائعًا وظمآن، فتحت القلب للهواء والنهار، كفاي خطوط بلا انتهاء، حدّقت في تعرج خط من رأس الإبهام حتى الذراع، فإذا نهر من ماء مغشوش. أطلب كسرة من نجمة ساقطة، تختلط اللعبة بأغنية بدوية عن ثورة جبل، أفاقت على صوته مدينتان وشمس، وكنت أحدق في خط تعرج من رأس الإبهام حتى الذراع.

نهضت في صباح شقي، مشيت فلم أبصر غير الجدار، اصطدمت بفتحة الباب الواسعة، فسقطت ذراعي في الهواء، وتبعها جسد موبوء بمرض الفقراء، وقعت على الأرض، نهضت،

* من كتاب عرض موجز.. الرياض 1990

فتحت النافذة فرمتني جارتي بوردة بنفسجية للصباح. دخلت غرفة البارحة، رأيت بقايا في كؤوس متسخة وضجَّت روائح العفن. حدقت في قاع كأس فلم أر وجوه الأصحاب، رأيت كسرة من نجمة ساقطة، ومسافة حزن بيني وبين ليلة البارحة.

البارحة عصرنا القوافي واستمطرنا الشعر وشربنا نخب الصداقة، ذهبنا في الفرح وكانت الأسئلة الكبيرة تنهزم والوقت بديع، تحسست فيه شيئًا من دفء في أعين حاضرة يملؤها فرح بشري طهور. قلنا ندخل معًا قاع الكأس والمدينة لامعة تشع فينا، استحضرنا الأرض مسطحة، وكان وقتًا حلوًا، فلا الأرض كروية والوقت مدى طويل. من فتحة النافذة أطلت وردة، قمت إليها قبل أن يبين سهيل، فصبت في عيني حزنًا من عينيها، وولهًا كدت أضم شواطئه القمرية الأنيسة، وعدت أربط وجوه قاع الكأس بخاصرتي.

كنت البارحة فرِحًا، رأيت فجوة ترسل أشعة ذهبية تغمر الوجوه حولي، وسمعت الأصدقاء يهتفون بفجوة المستقبل، ويحفرون بأظافرهم في الحائط، وكان وقتًا حلوًا، غمست إبهامي في كأس ملآنة وجئت بها على صدري، ضغطت بقوة، رفعت إبهامي، رأيت نهرًا يجري ويغمر ذراعي.

والبارحة يا جارتي أخلفت ثلاثة وعود، تركت المدينة والناس ورتابة طقوس الدخول والخروج اليومية، بلا أي شيء، وعد يعقد قرانًا وآخر يفسخه، وثالث وجدته ينسل خفية من خيط

الذاكرة. وأحدثك عن وقتي التالف فأرضي دومًا مسطحة، والشمس تجيء وتغادر دون أن أراها، فقد لففت كل شوارعنا الصغيرة والكبيرة مراهقًا، وكاد يخدعني طريق واحد للحياة لم أر سواه في هذه المدينة، وبدأت في غرفتي الصغيرة آكل كل الطرق، وأفلس وجودي المشطور بين غيمة لا تأتي واشتهاء وجهك العائد دائمًا من شوارع خاوية لا تنتهي.

قلنا في البارحة المزهرة: من يسقط حين يبين القمر يُسمَّى قمرًا، ومن يسقط حين تسطع نجمة سهيل يُسمَّى سهيلاً. رأينا سهيلاً يتكئ على صمت وعروق دمه خضراء ثائرة، في وجه صيَّرته الكآبة شاحبًا لا يعكس ضوء المكان، ونجمنا الخافت رجل منذ طفولته، سطعت العبقرية في عينيه طفلاً ومشى، لكن أشجار المدينة -ويا للحزن!- تحركت وراحت تجر جذورها في وجهه، فجعل يصدم الواحدة تلو الأخرى، حتى انكسر وجاءنا يستريح من عناء عمر صغير شقي، وبحجم بؤسه صار يركض مهووسًا وينثر حلمه المكسور بيننا.

كان سهيل يسعف الوقت الرخو المتهدل على أكتافنا، بأغانٍ يتبعها قمر من أول الليل.

صحوت هذا الصباح جائعًا، لا يرى القلب من نهاره غير الضوء، ولا ترى الأحداق غير نافذة موصدة غائبة، وبقايا كؤوس وسجائر محروقة، كفي معلقة وإبهامي تجري مياهه الفاسدة. غفا قمر في منتصف ليلة البارحة فاستعرنا من نوره أخبار

المدينة، فإذا عصافير عطشى راقدة في أعشاشها، منذ حلمنا ما لبسنا فيها ثوب احتفال، وكانت الغرفة محمولة على أكتافنا، فتعشب أجوافنا تعباً. نهض قمر ومشى مجدفًا بيديه وضاربًا الأرض بقدمين رخوتين: سوف آكل رأسي يا سادتي. وقال متقدمًا خطوة أو خطوتين: أهلاً.. ما هذا؟ قلنا: قفص العصافير.. وكان نائمًا.. قال وهو يرتد للخلف: إذًا هذا هو.. إذًا لم تكن مريضة، هذه الطيور أكلت رأسي. ثم قهقه بقوة، وقبل أن يترنح ويسقط فتح باب القفص وأطلق العصافير.

وعن قمر أقول لك إنه الأرض المباركة التي لا تنجب إلا بضرب الفأس، لغة العصا الأجدر من كل اللغات، وهو أيضًا ضحية لغة فاسدة، وحديثة عن الهلوسة أو الخوف. في البدء سقط سهيل وتبعه قمر وكنت مفيقًا حتى التعب، خفيرًا على حلم طويل، طويل، ووجهك لم يظهر هناك، أركض ولا أجده، قلت: ضاعت في المدينة وردة، وأنا أعرف مدينتنا. صحوت جائعًا وظمآن.. ليس سوى بقايا كؤوس متسخة ورائحة عفن وجسدين متقاطعين لقمر وسهيل وقفص مفتوح هربت عصافيره. حدقت في الكأس الملآنة فإذا كسرة من نجمة ساقطة ومسافة حزن أو حزنين بيني وبين ليلة البارحة.

شموخ*

أذن الفجر فسمع صوتًا أنثويًا بقلب احتفالي، يهمس له برفق: قم. كأنه صدى صغير لصوت المؤذن، يتردد في أذنه فيتذكر أزمنة الصباحات القديمة، حتى إذا ما انتهيا، الصوت والصدى، شعر بيدٍ باردة تُربِّت على رأسه، فيرد: إنني مستيقظ، ولكن أشعر بالبرد. يقول الصوت ناصِحًا: سوف يساعدك الرب، يجب أن يراك الناس في المسجد ليعرفوا أنك كبرت.

وفي الشارع الرطب، القارس البرودة، بدأ الشاب يشم روائح كريهة كأنها لبول قطط أو كلاب، روائح قوية ونفَّاذة، بالإمكان لمسها بأصابع اليد، وضع كفيه في جيبَي ثوبه، انحرف إلى شارع

* من كتاب أظافر صغيرة جدًا.. مختارات فصول بالقاهرة 2000م

صغير بإضاءة ضعيفة، يقود إلى الشارع العام وهو يتأمل حركة الأطفال مطبوعة على أتربة الشارع، بأقدامهم الصغيرة التي ركضت كثيرًا ليلة البارحة، وهي ترشق مصابيح الضوء الباهتة بالحجارة، كان يمشي ويفتش في مشاعره العارية، مثل طفل وُلِدَ توًّا، مشاعره الدخانية في أكثر الأحيان، محاولاً إعادة كل شيء لم يفهمه، إلى أبعاده الأليفة، التي تمنحه القدرة على أن يعيش سعادة متوهمة، لكن رائحة بول القطط والكلاب، أخذت تفوح في الحارة مضمخة جدران البيوت بألوان مستحيلة، وخارجة إلى فضاء المدينة لتملأه بحريق هائل، وكانت الذاكرة تعود إلى الوراء، ذاكرة الأب الذي يملك البيت نصف المهدوم، والأم والإخوة والأخت والحارة، ذاكرة سوداء تُخلِّف فيه أثرًا من الوحل والأدغال المظلمة، وكان يسمع همس بعض الرجال داخل المسجد، يأتي عبر مكبر الصوت، الذي يفرحون كثيرًا لوجوده، كأنما يمنحهم القدرة المأمولة على دخول بيوت الحارة قسرًا. كانوا يهللون أو يكبرون بأصوات مسموعة، كما يسمع وقع أقدام بعيدة آتية إلى المسجد، أقدام تُصدِر صوتًا مميزًا في هذا الوقت من الليل. وصل الشارع، وبدأ يمشي تحت العمارات حتى ظهر ظل صغير، ولم يلبث حتى رأى رجلاً بملابس شبه عسكرية فارتعب خائفًا أن يرتاب من وجوده، اقترب منه الرجل، فرأى الشاب جسدًا نحيلاً ووجهًا يشيع صفرة في المكان، يحمل في يده صافرة إنذار، وفي اليد الأخرى عصا سوداء، سأله هذا الرجل بصراحة صوت يفتعل الخشونة ومفعم بالشعور

بالسلطة: ابن من أنت؟! قال الشاب في نفسه: إن هذا من جماعة عسس الليل، ثم رآه يتأمله باحتقار، ثم يقترب منه ليسأله مرة أخرى بصوت آخر: ابن من أنت؟ ولماذا لا تذهب إلى المسجد أو بيتك؟ ماذا تريد هنا في هذا الوقت؟! أتم أسئلته ولم ينتظر إجابة، كان يبدو كما لو أنه فرح بمهنته وبوجود هذا الضيف من أجل أن يمارس دورًا عمليًا ما. هدأ قليلاً، ثم سأل الشاب: قل ماذا تريد هنا في هذا الوقت. كان الشاب يشعر بطعم مُرّ في حلقه لإهاناته السخيفة، فرد على الفور: أتمشَّى.. ورأى أن إجابته قد أحبطت داخل الرجل الذي استنفد كلامه، ولم يجد الرجل سوى أن يمد يده الطويلة جدًا ليقبض بها على اليد اليسرى للشاب، ثم ينهره وهو يصرخ: تعالَ معي. والشاب ثابت في مكانه بصمت، فيحاول الرجل إقناعه أنه إجراء روتيني فقط في المكتب، لكن الشاب لا زال ثابتًا في مكانه، والرجل لا يدرك أن الولد الذي أمامه كبر فقط هذا الصباح، وفي هذا الصباح، فقط، امتلأ بأشياء كثيرة، ولهذا راح الولد يتأمل قامة الرجل القصيرة وجسده النحيل، رأى ضآلة الرجل أمام جسده الفَتِيّ والشامخ بشكل احتفالي يليق بهذا الصباح الجديد، جسد رجل كبر توًّا، رجل في السابعة عشر طويل وعريض الكتفين، ولم يجد هذا الولد الخارج من القمقم ردًّا على مثالية ساذجة كان يزمع أن يرتكبها سوى أن يبدو أمام نفسه أكثر وضوحًا، تاركًا خلفه كل الجوانب الغامضة للأشياء، ومنها هذا الرجل. فاقترب من الرجل الذي يمسك بيده، اقترب منه وهو يشعر بأنه يكبر كل

لحظة أمامه، اقترب بصمت احتفالي مهيب، مدفوعًا برغبة عارمة وخطوات فرحة، تشيع بهجة في الفضاء وتكسو جدران البنايات بألوان بهية لها نكهة الربيع.

كان الشاب يحارب رغبة داخلية في التعبير عن مشاعره الجديدة التي تملؤه في هذا الصباح التاريخي، حتى وجد فجأة جسده العريض يتقدم ليصادم جسد الرجل بعنف، ثم يرتد قليلاً ويعيد الكَرّة مرة أخرى، حتى أطلق الرجل سراح يده، ثم تقدم الشاب مرة ثالثة ودفع الرجل في صدره، بينما ظل جسده الفتِي صامدًا وشامخًا لا يتزحزح، حتى في عنف اندفاعه المثير للمشاعر يظل شامخًا وفرِحًا، وهو يرى الخوف في عيني الرجل، ذلك الشيء الذي ظل ينتظره منذ أزمنة قديمة، تراجع الرجل إلى الوراء في خطوات مرتبكة تتعثر وخوف صريح، جعل الشاب يتشجع كثيرًا لدفع جسده أكثر إلى الأمام، وكان صامتًا يشعر بجمال هذا الفعل الغامض بوقار، هذا الفعل الذي يسري في دمه مع خوف صغير من نهاية هذا الغضب الذي يجتاحه الآن، ضد هذا المخلوق، الذي أطلق ساقيه للريح وهو يطلق نباح صفارته بكل ما أوتي من قوة كأنه يستنجد بزملائه. كان الصوت يملأ المكان ويهز هدوءه العميق، وكان الرجل بصفارته وعصاه وخوفه ودهشته يختفي في ظلام دامس وهو في ذروة الذعر، والشاب يعود إلى بيته يصحبه شروق صغير رمادي وغامض له نكهة جديدة.

شروق البيت*

لضحى البيت في الشتاء مذاق خاص، ورائحة خاصة لم أشمها منذ زمن. صحوت هذا اليوم فعرفت كم أكره المدرسة، وكان أبي قد أخذ لي إذنًا بالراحة بعد أن طال عنادي ومرضت. الوقت ضحى ساطع، ونور يغمر البيت، في وقت لم أره كثيرًا وهو يرسم ملامحه المتميزة على الجدران والأشياء، لم أرَ أشعة الشمس تسقط علينا من هذا الشرق الجميل، فتملأ الساحة الصغيرة للبيت بهذا الضوء النوراني، كأنه الفرح يصب في بيتنا. رأيت أن أمي مشغولة، فركضت إلى باب الشارع لأرى كيف تأتي شمس الصباح على شارعنا الصغير، فتحت الباب،

* من كتاب إذعان صغير.. مختارات فصول بالقاهرة 1992م

وكما لو أنني أراه لأول مرة، بدا لي لأول وهلة أنه شارع آخر لا أعرفه، وجدت أن الشمس تأتيه من الجهة الأخرى، من الشرق، أليفة، طازجة وجميلة، وأدركت بعمق الإحساس، كم أنا غائب عن أشياء رائعة ولها طعم خاص. جلست أتأمل الشارع بفرح من يتذكر زملاءه، وهم يعانون في المدرسة كأنهم يبكون، وامتلأ رأسي فجأة بصورة واحدة، لمدرس العربي عندما يتحدث، يمتلئ فمه بالزبد الأصفر الذي يرشقه في وجوهنا كل صباح، كانت لحيته سوداء هائلة، وثوبه دائمًا أسود، فيبدو لي وأنا أتخيله أنه هو المدرسة نفسها، وأتذكر أيضًا زميلي "خالد"، ذات صباح عندما كنت أطل من نافذة الفصل على ساحة المدرسة، فأرى البواب يجره إلى الفصل، ويجلسه بجانبي وهو يبكي بوجه أحمر خجول.

كنت أتأمل الشارع بعمق، وإذا حركة النساء كبيرة في هذا الوقت من اليوم، يتبادلن مواد الطبخ وأنواع الأقمشة ويتحدثن كثيرًا. لأول مرة أسمع أصوات نساء حارتنا بهذا الشكل الواضح. امتلأت بإحساس أن الصباح دائمًا لنساء الحارات، بينما المساء لرجالها وطلاب المدارس، وكنت أيضًا أرى الأطفال الصغار، الذين لم يعرفوا المدرسة بعد، يلعبون بالأتربة جوار أبواب بيوتهم. بعد وقت قصير عدت إلى البيت بنشوة غريبة، فقد كنت أتمنى أن يطول هذا الضحى الجميل، أكبر قدر ممكن لكي يستمر هذا الإحساس معي بمعنى الحياة،

وأعيش متمتعًا به. شربت الشاي مع أمي ومع جاراتها، ثم استلقيت على ظهري بينهن، أتأمل فتحة سقف بيتنا، وأرصد حركة شمس الشروق على جدرانه بدهشة بالغة وفرح غامر، وكانت جارات أمي يلاطفنني بحركات مجاملة مضحكة، وكنت أكتفي بأن أنظر في وجوههن بكُرْه، وبعضهن يسألن عن مدرستي فأصمت مملوءًا بالرغبة أن يُعجِّلن بالخروج. أغمض حدقتي وأتذكر بحزن تعاقُب حصص المدرسة وثقلها، وكنت نصف نائم عندما شعرت بحركة النساء، ثم تعود أمي إلى جانبي، تعبث بأصابعها الرقيقة في شعر رأسي، وكنت أحس بكفها ثقيلة وناعمة، ودافئة تحت شمس الشتاء. فأستمتع بلذة قوية لم أستطع معها فهم ما كانت تحدثني عنه، حتى سألتني بمفاجأة وصوت مرتفع قليلاً: هل فهمت؟ رفعت عيني إلى وجهها وأنا لا أعرف عن ماذا كانت تتحدث، قلت لها: نعم، وسألتني ماذا ستقول لأبيك بعد أن يأتي؟ فسكت. قالت: سوف تقول له إنك تحب المدرسة وإنك سوف تعود إليها. فهززت رأسي وأنا أخفي رفضًا صارمًا، وكنت أفكر كثيرًا أنني أخاف من أبي، وركضت مذعورًا كفأر إلى غرفة قصية مهمَلة، كنت أحفظ بها أشيائي وأنام في إحدى زواياها، بقيت ساعة في الغرفة الصغيرة لا أعرف ماذا أعمل، كنت فقط أرسم خطوطًا ليس لها دليل أو غاية، أخط في ورقة وأمزقها، حتى أحاطت بي الأوراق المشوهة من كل جانب، وكنت أشعر برغبة في البكاء. نظرت إلى الأوراق المكوَّمة حولي في ظلمة الغرفة، وإلى الشعاع

الشمسي الذي يطل عليَّ من ثقب صغير في نافذة الغرفة، ولا أدري لماذا شعرت أنني لا أكره المدرسة فقط، بل إنني أكره البيت أيضًا بشكل غامض.

سارة قالت هذا*

قالت رأيها ثم مضت، بعد أن ضغطت على جبهتي بطرف إصبعها الدقيق. قالت ذلك بتعبير وجه محايد لكن فيه جمالاً. كنت في الغرفة أتأمل عين امرأة تبحلق في وجهي المتعب والغامض. عين والهة، ليست عين آلهة، عين حزينة، عين واعدة، عين حالمة. تشعر أحيانًا أن أعين النساء مثل قطعة ضوء.. قطعة موسيقى.. قطعة وَلَه.. قطعة حب.. قطعة فن.

كنت أتأملها حين تذكرت الموقف في ذلك المساء الواسع والخفيف مثل حلم.. مثل روح.. مثل حب. قالت: قصائدكم وقصصكم فصيحة جدًا وغامضة وبلا نهاية، ثم ضغطَت على

* من كتاب هي قالت هذا.. المؤسسة العربية والنشر بيروت 2007م

جبهتي برفق موحٍ، ومضت، مضت لتصحيح دفاتر طالباتها، مضت تُعلمهن كيف يكتبن أسماءهن. حاولت القول لها إن أشياء كثيرة غامضة في حياتنا، لكنها كانت مشغولة، فرحت بانشغالها لأن إجابتي لم تعجبني، كانت إجابة باردة. في المساء أخذت واحدًا من دفاترها، رسمت على ورقته الأخيرة سيارة تقودها امرأة غير محجبة، وكتبت: سيارة سارة. وفي خلف الورقة كتبت لها اعترافاتي: نحن نعاني في المدرسة وفي الشارع وفي المستشفى وفي الحارة من ملل المساءات المتشابهة، لكننا لم نكتب حتى الآن عن هذا. تركت لها الورقة ومضيت، في اليوم التالي سألتها: ما أخبار زميلتك التي تحبني؟ سألَتني متعجبة وهي تبتسم ابتسامتها الصغيرة الساخرة والساحرة: تحبك؟! قلت: طبعًا. قالت: أوصلتنا بسيارتك التعبانة إلى المدرسة فصارت تحبك؟! قلت: لماذا لا؟! قالت: وأنت؟ قلت: ما بي؟ قالت: هل تحبها؟ قلت: طبعًا. ومشيت وهي تطاردني بتهمة الكتابة الغامضة.

ظللت أفكر مع نفسي وأنا في الطريق إلى الملعب لحضور مباراة للهلال في كرة القدم، قلت في نفسي: كانت معركة وانتهت في وقتها، معركة صغيرة تعاركت فيها مع لغتي لكي تذعن لي أو أذعن لها، ربما لم تكن معركة لكني لم أجد تعبيرًا مناسبًا حتى الآن، لكنها كانت ولا زالت بلا حكاية كبيرة، موت مثلاً، الموت في القصص يعطي القصة إثارة ولكن مفتعلة، تأتي بشكل جامد، مثل الجنس، أو أسئلة انفعالية، حول الفساد أو الإرهاب أو

الزواج والطلاق. لكن الحياة نفسها حكاية، الذين يذهبون للكتابة من أجل أن يكونوا أدباء، هم الذين اخترعوا المواقف والمشاعر المفتعلة، هم الذين يضعون أيديهم على خدودهم يبحثون عن موضوعات، هم الذين يقولون نحن نبكي حين نكتب.. كأن البكاء دليل إبداع.

في آخر الليل عين امرأة تبحلق في وجهي المتعب، عين واحدة فقط، على جانب وجه مختفٍ، عين سارحة في وجهي، عين ساحرة، فوقها شمسية بلون أزرق فاتح وحولها مطر، مطر ليس غزيرًا كما يقولون، مطر ينزل بهدوء. الهدوء أفضل من الغزارة، هدوء السماء أفضل من انفعالها، حتى في الفن، الهدوء يقود للتلقائية بينما الانفعال يقود للتكلف. أتذكر كل هذا، وأنا مهموم بعين سارحة وساحرة ترقبني. ليست عين ثعلب "محمد زفزاف"، ثعلب "زفزاف" أكثر حذرًا.

لكن أين العين الأخرى لهذه المرأة التي تبدو غامضة هي أيضًا، وجهها مختفٍ، يظهر منه، مع العين، شفاه حمراء رائعة، ثم أسفل من الشفاه تقرأ عبارة: "مسافات للمطر". إنها نصوص قديمة جمعها غلاف مبهم، الغلاف يبدو لي أحيانًا جميلاً جدًا، وأحيانًا أخرى أراه تقليديًا جدًا، بغض الطرف عن جمال العين والشفاه الحمراء. كنت على السرير، بينما الكتاب واقف أمامي على المكتب الصغير، هذا هو أخيرًا، ظهر للوجود، لم أهتم بأخبار خجولة ظهرت في الصحف عن صدوره، كنت أتساءل:

هل هذا ما أريد؟ أذكر أنها قالت لي بألم بعد سنوات: لكنك كتبت (هي قالت هذا) ولم تذكر اسمي حين أخبرتك عن موت منصور. قلت: سأعيد كتابة النص مُعنونًا باسمك الجميل. قالت: متى؟ قلت: مفاجأة. قالت: صحيح؟ قلت: والله!

حين أوصلتها إلى المدرسة المسائية مع زميلتها وعدت للحارة في تلك العصرية المظلمة والغريبة، رحت أتمشى في الشوارع وحيدًا، تلك الشوارع المتربة المثيرة للمخيلة ولكل المشاعر، كنت أرسم بقدمي لوحات كأنها موسيقى، أسير ببطء وعيناي على الأرض، أرسم خطًّا واضحًا أقطعه بخط آخر، ثم دائرة ثم نقاط مبعثرة، تعزف على وتر الإحساس الحاد بوطأة الوقت، والوعي الحاد تجاه الكثير من الصور الاجتماعية المحيطة والمثيرة، لم أكن أفهم معنى الكثير من القصص التي أسمعها، كنت أظن أنها قصص من نسيج خيال جامح، فهل يُعقَل أن هذا الشارع الطويل الذي أمُر به كل يوم راسمًا الكثير من اللوحات بقدمي المتربتين، ينطوي على هذه الحكايات المثيرة للخوف والحزن والألم، والشفقة أيضًا، يتحدثون عن أشياء كثيرة مثيرة وغريبة، ويتحدثون عن ذلك الشاب "منصور"، الذي نسمعه كثيرًا ولا نراه كأنه أسطورة من الزمن القديم. يقولون إنه في مساء الجمعة الماضية أشعل النار في جسده، وأن بيتهم تحول إلى كومة رماد، وأن الولد نقلوه إلى المستشفى بين الحياة والموت، ثم أخيرًا فارق الحياة هناك.

قبل العصر بقليل أذهب بمشيتي البطيئة، قاصدًا بيت هذا الولد المتمرد، الذي قالت عنه أختي مسكين، وقالت عنه والدتي مجرم. رأسي إلى الأرض وقدماي ترسمان الخطوة على لوحة التراب. هذا هو بيتهم، ولكن أين كومة الرماد التي يتحدثون عنها؟ لم يتغير في بيتهم شيء. أظل أمام باب البيت وقتًا ربما يخرج أحد منهم. قد أرى كومة الرماد في الداخل، أنتظر أن يُفتَح الباب، حتى وصل والدهم وفي يديه كيسان من الخبز والبرتقال. يفتح باب بيت، يدخل ويترك الباب موارِبًا بانتظار ابنه، أطل على مدخل البيت وأرى فوق الستارة من الخلف علامات سوداء في أعلى الجدار كأنها آثار حريق مثلاً، أو كأنها... لا أدري. الآن بدأت أمسك أول الخيوط، كومة الرماد تحوَّلت إلى خيوط سوداء فقط، نعم كان هناك حريق ولكن ربما ليس مقصودًا. أعود وأنا غير قادر على الربط بين ما سمعت وما رأيت، أسمع حركة خلفي فألتفت، أرى ابنتهم الصغيرة تطل برأسها كانت بجديلتيها المعهودتين وعينيها اللامعتين مثل عيني عصفور، وأنفها الأحمر الصغير والسن الكبير البارز. تلاقت أعيننا، ابتسمتُ لها، كانت على وشك الدخول إلى بيتهم قبل أن تُخرِج لي لسانها الأحمر، ثم تبتسم وتختفي، وأنا عدت إلى شارعنا أُحدِّث نفسي بأن الصورة الأخيرة لوجهها أفضل للمخيلة من كومة الرماد.

وصلت شارعنا الصغير الهادئ وأنا أفكر بأشياء كثيرة، لماذا يحاولون أن يقتلوا أنفسهم؟ وتذكرت أن "منصور" كان مريضًا

نفسيًا وأنه عانى كثيرًا قبل أن يموت، ولكن هل مات حقًا؟ هل كان هناك حريق بالفعل؟ كيف يحدث هذا وأخت "منصور" لا زالت تُمارِس عادتها بإخراج لسانها الصغير للمارة وتضحك؟ رأيت صديقي "خالد" يجلس على عتبة الباب الخلفي للجيران، وقد شمَّر عن ساعديه ورفع ثوبه إلى ما فوق ركبتيه، وبين يديه وفمه قطعة كبيرة من البطيخ يسيل ماؤها على وجهه، جلست بجواره حائرًا، قلت له الحكاية كاملة، وأضفت عليها مخاوفي وأسئلتي، لكن "خالد" سألني: من أخبرك بموت منصور؟

قلت له: هي قالت هذا.

سألني: من هي؟

أجبت: أختي سارة.

قال لي: اسكت، منصور مات في حادث آخر (ثم تلفَّت حوله)، سوف أخبرك فيما بعد. كان "خالد" مرتبكًا، وأنا بدأت أشك في أشياء كثيرة حولي، وبدأت أيضًا أنسج حكاية جديدة لموت الولد الشهير والمتمرد "منصور"، تذكرت، لكنها بالتأكيد سوف تكون بعيدة عن بيتهم الذي لم يتحول بعد إلى كومة رماد، وقريبة من وجه طفل لأخته، يبدو أنني أحببته كثيرًا.. وهذا يكفيني.

أنفاس الليل*

في هذا الليل البري، البارد، والهادئ، والمخيف، والممطر بهدوء، كنت أسمعه يأتي خفيفًا من بعيد، كأنه صوت طائر محبوس، أو صوت لكائن آخر لا أعرفه، لكنه صوت أنيس، يشبه الموسيقا أحيانًا، وأحيانًا يشبه الرنين البعيد.

أسمعه الآن، وأنا أرتجف بردًا، بعد أن ترجَّلت من سيارتي التي هوت في منحدر صغير وسط براري المدينة القريبة، حين كنت أبحث عن مخيم غامض الملامح.

---

* من كتاب هي قالت هذا.. المؤسسة العربية والنشر بيروت 2007م

أغلقت أبواب السيارة بعد أن أضأت نورها القصير، ثم مضيت تجاه ضوء بعيد وشاحب، يظهر أحيانًا ويغيب فجأة، ظللت أسير وسط الظلام، على أرض مظلمة ورطبة لا زالت تستقبل مطرها الخفيف، وحولي ذلك الصوت الذي يأتي من كل الجهات موسيقيًا وعذبًا، يرن في أذني الآن بقوة، صوت أليف ومميز وسط هذا الضياع الغريب، حتى أنني لا أعرف اتجاه المدينة، رغم الأضواء البعيدة والباهتة التي أراها تنبعث أحيانًا من كل اتجاه، وتختفي فجأة وكأنها شهب دخلت في لعبة مسرحية، مع خوفي الذي لم يبلغ منتهاه، لكنه لا زال ممتعًا ومُنتظرًا أو متحفزًا أو مندهشًا.

مشيت مسافة نصف ساعة تقريبًا، حتى أضعت أنوار سيارتي، ولا زال الصوت الخفي يتبعني، مع صوت المطر على الأرض الرطبة، والهواء البارد يضرب صدري ضربات متتالية، حتى بدأت أشعر أن حلقي صار أكثر جفافًا وخشونة، مع إحساسي بالدوار، وخطواتي أصبحت أقل اتزانًا، وبدأت أتحدث مع نفسي وأنا أضرب الأرض الممطورة بقدمَي الرخوتين، حتى عاد صوت الطائر المحبوس، قادمًا، ربما من البعد، يضيء ظلام الوقت والمكان والروح والأسئلة والخوف.

كنت أفكر وسط هذه الحالة بأشياء صغيرة، أحيانًا أمشي يأسًا وعيناي على الأرض، أسترجع شريط حياتي القريبة، وآخذ موقفًا من بعض الأشياء. بدأت أحاكم الرجل الذي كنته قبل

هذا الضياع، وكنت أتساءل: كيف تسنَّى لي -أنا المغرور بذاتي- أن أتجاهل أشياء مهمة؟ كيف أضعت الوقت والفرص و... ثم بدأت البحث في الكثير من الأفكار، وإعادة تصوير الكثير من المواقف. بدأت الأشياء والأفكار والصور واضحة وجلية أكثر من أي وقت مضى، ورأيت كيف تتداخل الصور المتناقضة والصحيحة مع بعضها البعض، وكيف في ظل الانشغالات نقبل بكل شيء. كنت أرى عالمنا مثل جُزر معزولة، وأرى المسرحية بكامل فصولها، مع صوت ذلك الصفير البَرّي أو الطائر المحبوس. كنت أعود إلى الطفل العظيم في داخلي، وأشعر أن هذا المكان النائي بدأ يترك في أثرًا من روحه، مُضمخًا برائحة جديدة ونفَّاذة لم آلفها بعد، وكنت أحاول أن أتعايش مع هذا الألم بسرية ووقار، في حين تنفجر الذاكرة بلا إرادة في، مبتعدة هناك إلى الطفولة القصوى، وإلى تعرية الواقع الذي كان واقعًا ضخمًا، ومسيطرًا بضبابه، قبل هذا الموقف.

لقد أحببت صوت الطائر الذي يسير معي الآن، لكني بدأت أشعر بالمسؤولية أكبر، بعد أن فقدت إضاءة سيارتي، ثم تنبَّهت أنني قطعت الآن أكثر من ساعة، فآن للمحارب أن يستريح قليلاً على ظهر حصاة مبلولة، على إيقاع أنفاس الليل، وصفير ذلك الطائر، الذي ربما لا يكون طيرًا. على ظهر الحصاة الممطورة، مكثتُ نحو عشر دقائق، كأني أنتظر أحدًا، وسط

هذا الضياع، في البراري المظلمة والممطرة، لا يمكن أن تحدد بماذا تفكر، لقد شعرت أنني لا أبحث عن حل، بقدر ما أنتظر دليلاً ما لاتجاه المدينة الصحيح، أو عابر سبيل، أو نور لا يبتعد حين أمشي إليه. الخواطر والأفكار تأتي عشوائية على نحو مثير، وفي وسطها تبرز صور غير معقولة، تحاول الاقتراب من هذه الحالة الغامضة التي أمر بها. كنت أشعر أن قدمَي المبلولتين أكثر ضعفًا، وبدأ وجع جديد عند المفصلين، أما ثيابي فقد أصبحت منذ فترة طويلة تقطر ماء السماء. كان صفير الطائر المحبوس، لا يزال يرن في أذني بقوة، يحدثني عن أشياء كثيرة، يثير الكثير من الشجن، ويعيد ذكريات قديمة.

الآن بدأت أرى وجوهًا قديمة أعرفها، في عتمة خفيفة أمامي، بدأت أشعر بدوار ثقيل أيضًا، وأنا أتأمل وجوهًا اصطفت بجانب بعضها بعض بتعابير مختلفة، كل أصحاب هذه الوجوه ماتوا، وكلهم الآن يبدؤون في الحركة، يتقدمهم وجه والدي الذي فقدته منذ أكثر من ثلاثين عامًا، كان أكثرهم وضوحًا بشعر وجهه الأبيض، تقدم أكثر ويده اليمنى أمامه حتى لامست خَدي، فصحوت من خدري اللذيذ، وبقي بعض الدوار الذي سمح لي بتوديعه وداعًا يليق بحجم الفقد، وفي كل وقت كانت تظهر وجوه متفرقة وتغيب، نساء ورجال فقدتهم منذ أزمنة بعيدة، في حوادث أو أمراض مختلفة، وجوه تظهر ووجوه تغيب وأنا في حال إرهاق شديد، أرى نفسي في وجه أبي، أرى

أسئلتنا المعلقة وأحلامنا المنكسرة ومتاعب وجوهنا جميعًا، وكانت بين وقت وآخر تطل عليَّ بوجهها الفاتن، تطل من البعد وأنا مشغول بوجوه كثيرة حولي، وكأنها تريد القول إنك دائمًا مشغول عني، تطل من البُعد فأشعر بتأنيب ضمير وندم وبكاء، ثم في لحظات أخرى أشعر أنني أعيش حياة بائسة في عالم كبير الفوضى وكبير الآلام وكبير البؤس، وكثير الأحلام المؤجلة، عالم لم أشارك في صنعه وليس لي في واقعه رأي.

تركت ظهر الحصاة التي استرحت عليها قليلاً، واتجهت نحو ذلك اللون الفضي البعيد الذي يشبه قبة في نهاية الأفق، قلت: تلك هي إضاءة مدينة الرياض، أما سيارتي التي فَقدتُ إضاءة نورِها القصير، فلم يعد بالإمكان العودة لها بأي طريقة. ظللت أمشي حتى وجدت أن الساعة قاربت الواحدة بعد منتصف الليل، ولم أصل بعد، إلى طريق يهديني إلى الشارع الرئيسي المؤدي إلى المدينة. السماء ما زالت تمطر بهدوء، والليل يتنفس مطرها بهدوء أيضًا. ظللت أسير باتجاه الضوء الفضي الواسع في قبة السماء، وفي رأسي تدور حكايات كثيرة عن أولئك الذين خرجوا من بيوتهم ولم يعودوا.. صاروا في عداد المفقودين، وبدأت أهذي بكلمات غير واضحة، صوت يخرج من داخلي يُشعِرني بالهزيمة واليأس. لو أن يدًا ضخمة تقلني الآن إلى حضن كفها الدافئ، ثم ترمي بي على سطح بيتنا، لو أن نهارًا يعجل بصباحه، الآن، لكي أعرف أين أنا، أين الطريق.

ما زال المطر خفيفًا، وما زالت الأصوات المختلفة القادمة من بعيد تتداخل، ودون أسباب بدأت أشعر، بعد عشر دقائق من المشي السريع المتواصل، أشعر أنني قريب من مكان ما. كانت هناك مناظر سوداء بعيدة كأنها جبال، وأحيانًا تبدو كأنها جدران عالية مظلمة، وحين أقترب منها تبتعد، حتى بدأت أسمع أصوات سيارات شحن بعيدة، بالتأكيد إنها تسير على الخط السريع لطريق الرياض القصيم، وبعد لحظات قليلة من المشي والانتباه المركز، اصطدمت بجدار حقيقي، درت حول المبنى الصامت فوجدت به بابًا مغلقًا، ركضتُ إلى الطريق الترابي المؤدي إلى الطريق العام، مكثتُ دقائق حتى توقفَت شاحنة، ركبت بجوار السائق الهندي وأنا ألهث، ولم أفق إلا وأنا مُدثَّر بغطاء ثقيل في بيتي، وقبل أن أتطامن في نومي العميق، تذكرت حواري مع الطائر المحبوس، حين كنت ضائعًا وسط البراري.

قال الطائر المحبوس: عد إلى سيارتك.

قلت: كيف وأنا فقدتها منذ وقت طويل؟

قال: من خلال الطريق الذي سلكته سوف تصل إليها.

قلت: هل أسير ساعة أخرى؟

قال: أفضل من المجهول الذي تذهب إليه الآن بقدميك.

قلت: وماذا أفعل بسيارة في حفرة ممطورة؟

قال: تنام بداخلها حتى الصباح.

قلت: بلا غطاء ولا ماء؟!

قال: أفضل من المجهول الذي تذهب إليه.

كانت أنفاس ليل البراري تضيء بصخب في نومي المتطامن قليلاً.

إذعان صغير*

نهضت في التاسعة صباحًا. ذهبت إلى دورة المياه وعدت إلى فراشي، كنت على وشك الدخول في اللحاف الدافئ حين رأيت يدًا بجانبي تمتد نحوي، وهي تحمل ورقة بيضاء، مددت يدي، تناولت الورقة لأقرأ: نحن مكتب الحقوق المدنية نطلب منك أن تحضر أمام مدير المكتب في العاشرة صباحًا.

والآن بقيت ساعة على الموعد أمام مدير مكتب الحقوق، وعليَّ حقيقة أن أحضر حتى لا يزداد الأمر سوءًا، نهضت وتناولت إفطارًا سريعًا، ثم خرجت إلى مكتب الحكومة. دخلت المبنى بنشوة غريبة رسمية وجادة، فبقدر ما أكره مثل هذه

* من كتاب إذعان صغير.. مختارات فصول بالقاهرة 1992م

الأماكن، تجدني مذعنًا ومنتشيًا بشكل مضحك، فأنا دائمًا هنا أتحدث بصوت جديد، غريب، مرتفع قليلاً، ويضحك، ربما لإحساسي بأن عليّ أن لا أذعن لهم بشكل جاد، وصلت المكتب ودخلت، جلست على يسار مدير المكتب الذي لم يهتم لدخولي، وبدأت أشرح له كيف أني صحوت أصلاً لأذهب إلى الحمّام، وفوجئت بيد تسلمني ورقة المكتب، ورأيت جاري فجأة يجلس قبالتي على يمين مدير المكتب، نهضت بسرعة، شددت على يده وأنا أضحك، سألته: وأنت أيضًا طلبوا منك أن تحضر؟ ابتعد بوجهه عني؛ عدت إلى الكرسي مهزومًا، ليسألني المسؤول فجأة:

أنت صاحب سِرب الحمام الذي يحلق في الحارة؟

- نعم.. لكن ما علاقة...

الحمام الذي يطير في فضاء الحارة (...)؟

- نعم!

وفجأة تحدث جاري بصوت مرتفع قليلاً كما لو أنه يخطب:

- أيها المدير.. لقد امتلأ سطح منزلي بالحجارة، وهذا الرجل غارق في جنونه المتصل منذ سنين، وأنا أريد حلاً عاجلاً.

أدركت أن جاري هو غريمي، ورنت كلمة "جنونه" في أذني بقوة، كأنها صفعة، فنهضت وقلت له: اخرس.

كنت أريد أن أقول له إن عليه أن يحترم المكان على الأقل.

ولكن مدير المكتب تدخل بسرعة.. وسألني: جارك يدَّعي أنك ملأت سطح منزله بالحجارة، وأنك تطارد حمامك في الفضاء بشكل مزعج للجميع.

- ليس صحيحًا على الإطلاق.

- وأنك تتراجم مع أطفاله بالحجارة، وأصبت أحدهم في رأسه.

- يا أخي.. إنهم ليسوا أطفالاً، إنهم شياطين صغار، مثل والدهم.

رأيت جاري ينتفض ويقف بسرعة، فأومأ له المدير بحركة غامضة، كانت إيماءة مريبة، جعلتني أشعر أن بينهما اتفاقًا ما، وملأني شعور بالضآلة أمامهم.

قال المسؤول لي:

- هذا الحمام عندما يُحلِّق في الفضاء بشكله الجميل، يغري بعض الصغار لملاحقته، إما بأعينهم السوداء الصغيرة وإما بحجارتهم.

وعقّب الجار: وهم أطفال في نهاية الأمر.

ثم ضحك بسخرية وكرر: مجرد أطفال.

قلت للمسؤول: لفظة "يلاحقونه" ليست دقيقة، قُل يطاردونه بأحجارهم الكبيرة التي ملأت بيتي وأفزعت أطفالي.

قال: طبعًا، أنت تصرف على هذا الحمام.

- تبادُل منفعة.

- وهو يتلقى أوامرك.

- ليس دائمًا.

- اسمع.

- نعم مدير الحقوق المدنية، أنا معك، أنا جئت هنا لكي أذعن كما جاء في خطابكم الموقر، ونحن في آخر الأمر مواطنون مذعنون بشكل أو بآخر كما أن...

وقاطعني المسؤول: عندما يطارد الأطفال حمامك بالحجارة، وتتأذَّى أنت ويتأذَّى جارك تكون أنت المسؤول.

قلت: ليس بالضرورة.

قال: أليس الحمام يخصك وحدك؟

قلت: ولكنه في نهاية الأمر مجرد حمام لا يستحق منكم، ثم أن أطفال هذا الرجل يقصدون الإساءة لي بشكل مستمر. لقد كانوا يجمعون أطفال الحارة في سطح منزلهم لملاحقة الحمام، حتى وهو بعد راقد في أعشاشه. وأنا يا سيدي، وجدت أن المسالة بدأت تأخذ شكل الحرب، قلت إنني لست ضعيفًا إلى حد الصمت على الإهانة، وبدأت أبادلهم الرجم، أعترف لك بهذا، لأنني لا أكذب، وأتمنى أن تصدهم عني، لأنهم بدؤوا في

الأيام الأخيرة يستخدمون النِّبَال الصغيرة، وأنا الآن أعلن إذعاني أمامكم لكي أحصل على حقي.

- حقك في ماذا؟

- هذا الرجل الجالس أمامي، عصر أمس، كان يجلس القرفصاء أمام بابه ويضحك.

- وهل كنت تنتظر أن يبكي؟!

- كنت أنتظر أن يرمي الحجارة مع أطفاله، لأنني كنت أشاهده يصنع لهم النِّبَال الصغيرة، التي أثارت رعب أهل بيتي.

- أنت تتحدث كما لو أنهم يقصفونك بالقنابل!

- أجل كما لو أنهم كذلك، لأن الحجارة تتساقط على سطح منزلي وتُحدِث دويًا هائلاً.

- يا أخي الحجارة الآن تتساقط على سطح منزلي، وربما غدًا تسقط على سطح مكتبكم الجميل هذا.

- اسمع.

- نعم.

- نحن -مكتب الحقوق المدنية- نرى أن عليك بيع الحمام.

ثم يلتفت إلى جاري: وعليك أنت إيقاف أطفالك عن رجم الحجارة.

وأضاف لنا جميعًا: كل هذا من أجل سلامة الحارة، وسوف نحقق في الأمر بعد أسبوع.

تدخلت في شأن قرار المكتب، قلت للمدير المسؤول إن هذا سيكلفني كثيرًا، وقلت له إن سكان الحارات الأخرى يُطيِّرون حمامهم بحُرية، وقلت له أيضًا إن جاري هذا الجالس أمامي، سبق أن عرض عليَّ شراء حمامي، وأنه من أجل هذا...

قاطعني المسؤول: عليك تنفيذ الأمر فورًا، وتوقيع هذا التعهُّد.

وقَّعت التعهُّد وخرجت.

دخلت بيتي، زُرت دورة المياه، اغتسلت، وعدت إلى مرقدي مرة أخرى، ورأيت فيما يرى النائم ولم أكن بنائم، أني أبيع الحمام الجميل، وكنت أرى جاري وأطفاله ومدير مكتب الحقوق، على سطح بيت جاري، يبنون الأعشاش ويُطيِّرُون حمامًا جميلاً في فضاء الحارة، يومِؤون له بالبيارق الحمراء.. وكانوا يتضاحكون في وجهي.

أبواب وطرقات حائرة*

خرج في صباح هذا اليوم البارد، وضع في جيبه ضحكته المحايدة، وقاد سيارته بهدوء، يتأمل ناس الصباح، يتأمل سماءً شِبه غائمة تلمع في عينيه المُخدَّرتين، ليظل أقل انتباهًا وأقل حذرًا، وأقل رغبة أن يصل إلى ما يريد، لا يعرف ماذا يريد. له ما يريد ولهم ما يريدون، والمسافة بينه وبينهم صباح وضحكة محايدة ونور ساطع لشمس قديمة وعينين مُخدَّرتين، ووله عظيم. يتأمل أعينًا مجاورة مليئة بالنعاس، يحدق في

* من كتاب هي قالت هذا.. المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2007م

الفراغات، يتأمل إشارات المرور، وعمال النظافة، وتلاميذ وتلميذات المدارس. يقول سوف أمُر على تلك الحديقة المهمَلة التي تحولت إلى كيس قمامة، وسوف أمر بجوار مدرسة البنات، سوف أرى الشيخ الكبير الجالس أمام باب المدرسة بعصاه الطويلة، وبنصف رقدة يراقب احتشام البنات الداخلات، ثم أمر بعد ذلك في طريقي، على سيارات كثيرة تصطف أمام ذلك المطعم الصغير المشهور، كل صباح.

خرج في صباح هذا اليوم البارد يضع في جيبه ضحكته المحايدة، خرج من بيته تعبًا أو فرحًا أو حزينًا أو طائرًا مثل عصفور، خرج وهو يُخبِئ في جيوب ثوبه أشياءً كثيرة، وخلفه ترك أشياءً كثيرة، أبواب الغرف المفتوحة ورائحة الرتابة والملل، ومقاطع من أغانٍ مُتقطِّعة ومُبعثرة في الفضاءات الصغيرة المسقوفة، ونوافذ نصف مغلقة، تحدّق فيها عدة أبواب صامتة أو مفتوحة أو موارِبة.

الباب الكبير الذي أمامه يفضي إلى باب آخر، والباب الثاني من بعده، سوف يقوده إلى أبواب مفتوحة، وممرات كثيرة مغلقة، وهو يقف هناك بعيدًا، يرقب أناسًا يدخلون الباب الكبير أو يخرجون منه، يقف بعيدًا ينتظر الوقت الذي يمضي، والناس يركضون هناك بلا هدف واضح، يدخلون ويخرجون من أبواب كثيرة أخرى، وبأيديهم أوراق كثيرة، وبابه الكبير ينتظره، لكنه يقف بعيدًا هناك، يخاف الدخول، يخاف

الخروج. يقف مترددًا وخائفًا ومتلصِّصًا، يبحث عن رائحة أقدام تقوده، يقف هناك والناس تدخل وتخرج من أبواب كثيرة لكي تفضي بها إلى طرقات مغلقة، يقف بعيدًا ويتذكر أشياءً كثيرة ويحلم بأشياء كثيرة.

كل الأبواب تفضي إلى أبواب أخرى، كل الأبواب تفضي إلى طرقات مغلقة، ليس هناك باب يأتي من فراغ ويذهب بك إلى فراغ، ليس هناك باب يذهب بك إلى هناك، حيث حياة أخرى مفتوحة الرحاب، لكنه يقف متوترًا يقرأ ماضيه، يقرأ وقوفه الأول أمام العالم والناس والأصوات والحياة، والدروب المغلقة، التي أحبطت روحه منذ الصغر، يقف أمام كل باب مسحورًا ومبهورًا، خائفًا مترددًا ومتلصصًا، يتأمل قدميه الصغيرتين اللتين هدَّهما تعب قديم، فأصبحتا لا تقويان على الحركة، يحاول تحريكهما فلا يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة، يحاول أن يتكلم فلا يقوى على الكلام، يراقب خطوات البشر في الطرقات المغلقة، بصوت مُعبَّأ بالمرارة والبكاء، يراقب حياة تتحرك حوله ويستمع لأصوات متداخلة تأتي من هوة سحيقة في داخله، يظل هناك حذِرًا وبعيدًا ومرتاعًا، لا يقوى على الدخول، في انتظار باب يأتي من الفراغ ويدخله، ثم يفضي به إلى فراغات.

يدخل المطعم الصغير المجاور لبيته المتطامن، يجلس في مكانه المفضل جوار الباب الزجاجي المُطِل على رصيف الشارع،

لكي يتمكن من رؤية المطر الخفيف الذي ينزل الآن من السماء المُلبَّدة بالغيوم بعد صلاة الفجر مباشرة. المطر يغطي زجاج باب المطعم فيبدو مثل لوحة مائية رائعة. عامل المطعم يضع الشاي بالحليب الذي طلبه أمامه، وهو يتأمل العالم الهادئ من حوله، العالم الذي سوف ينطلق بعد قليل لا يدري إلى أين، وفي رأسه أسئلة كثيرة عن الصباح وعن الأبواب المخاتلة الكثيرة في هذا العالم، يسأل وقد ترك خلفه أشياء كثيرة، أبواب الغرف المفتوحة في بيته الصغير، ورائحة الرتابة والملل، ومقاطع حزينة من أغانٍ متقطعة ومبعثرة في الفضاءات الصغيرة المسقوفة، ونوافذ نصف مغلقة، وبعد قليل سوف يعود لشوارع الصباح من جديد وأبوابها الكثيرة التي تقود، أيضًا، إلى محض فراغ مكشوف. ظلَّ يضلل حياته الطويلة، وفي ذهنه باب قديم ظل يطارده ولا زال يشعر الآن أنه يقف فوق رأسه، مثل رجل، يراقب أحلامه الصغيرة.

نسـيان

ذات مساء.. تركت رأسي بكل أسئلته الضالة ومتاعبه وأحزانه، عند باب بيت لا أعرفه، وخرجت. كنت أشعر أني خفيف إلى درجة الطيران.

وفي البيت شعرت أن الكلام يهرب مني، فكلما أنطق كلمة تخرج معكوسة، أو تطير في الهواء بلا صوت. أحسست أن أعضاء جسدي تتساقط الواحد بعد الآخر في معركة يبدو أنها محسومة، وحين قررت الهروب والنوم، صحوت فجأة.

كنت أحاول أن أترجم تلك الكلمات التي خرجت معكوسة، حين قفز السؤال مثل عمود النار: هل أنا الذي كنت نائمًا، أم أن الذي كان يقظًا أحد سواي؟

خوف

قلت لك إنني عندما رأيتك أمامه مرتبكًا، شعرت بالخيبة التي دفنتني في الحزن البالغ، وقلت لك إنك بدوت أمامه كخائف لا يقوى على الكلام. كانت الكلمات تخرج من فمك بأحرف مخنوقة، متقطِّعة، ومرتجفة، كأنها تبكي، وكنت أرى وجهك أصفر، وجسدك يهتز بصراحة واضحة.

كنت تحاول أن تحني رأسك وأنت تتحدث أمامه، أو وأنت تُخرِج منديلك الأبيض بتوتر لتمسح عرق جبينك، وكنت تدافع عن نفسك كثيرًا، وفي غير ما داعٍ، في وقت كنت تحتاج فيه إلى سؤال صغير جدًا: لماذا فعلوا بك هكذا؟!

قبل أن تدخل، كان الرجل يسألني بأي وجه سوف يقابلك، وكان متوترًا. بعد أن خرجتَ رأيته يضحك بعمق شديد.. بعمق يا صديقي.

تـعارف

استيقظ فجأة، مبكرًا، وبشكل مزعج، حتى أن تفكيره كان متوقفًا عند نقطة ما، تقاطع في شارع "مثلاً"، أي شارع، كان يتمشَّى وحيدًا على الرصيف الممتد، حتى ابتسمت في وجهه فجأة وسألته: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ تأمل وجهها وسأل نفسه: أين رأيت هذا الوجه من قبل؟

في المساء طرقت عليه الباب، طرقت مرة أخرى، لكن دون إجابة، فأقنعَت نفسها أن تتركه لينام، بينما كان يلف أرصفة المدينة يبحث عن تقاطع ما في شارع ما في مدينة غامضة لا يعرفها، وفي أحيان قليلة كان يتوقف ليسأل نفسه: أين رأى ذلك الوجه الجميل من قبل؟

رؤيــة

كان يسير بمحاذاة رصيف مُظلِم مكسور، السيارات تتجاوزه بسرعة كبيرة، والأضواء تتخطف منه النظر الضعيف، وفي لمحة بصر واهن، فجأة لم يجد نفسه، هكذا.

قال: إنه ربّما سقط في بئر مهجورة، أو حفرة خادعة، أو غياهب لا يعرفها، وكان كلما حرّك يديه تصطدمان في جدار صخري، يفتح عينيه فلا يرى شيئًا، والمكان ممعن في ظلام عميق معبَّأة أجواؤه بخيالات موحشة.

كان يسمع أصواتًا بعيدة تأتي من كوّة ضئيلة فوق رأسه، وكان يشعر أن صوته بدا أكثر ضعفًا من ذي قبل، وروحه تصفق بأجنحتها كل شيء حولها.

حاول أن يتحرك فلم يستطع، كان يشعر بشلل في كل أطراف جسمه، حاول أن يصرخ فخرج صوت خافت يشبه العواء الصغير، فأمضى وقته ما بين غيبوبة وصحو مريض.

كان يسير بمحاذاة رصيف مظلم مكسور، السيارات تتجاوزه بسرعة كبيرة، والأضواء تتخطف منه النظر الضعيف.

يفكر بأشياء كثيرة متداخلة ممعنة في السواد، فيبكي، وأحيانًا تمعن أشياؤه في البياض فيضحك.

وصل بيته يقطر خوفًا وتعبًا وعرقًا، ثم بدأ يقصص رؤاه الحزينة بكلام لا يفهمه، وعلى أناس لا يراهم في وقت حالم ومثير، له رائحة الحمى.

رأس

صاعدًا درجات السلم الطيني، حتى أصل إلى النقطة الأكثر ارتفاعًا في بيت، أتأمل بيوت الحارة واحدًا فواحدًا وعمارات المدينة واحدة فواحدة، وأختزل تاريخ المدينة في صورة واسعة، من هذه الجدران العالية. البيوت الطينية صفراء، هادئة كلوحات تراثية موصولة، والمنائر تتسامق ساطعة، وكنت في ارتفاع بحيث إن نخبة من البيوت تبدو بارزة قليلاً، لأصطاد النظر إلى رأس بشري من البُعد، كان ثابتًا دون حركة، وكان يبدو لي من بعيد شكلاً جميلاً، نقطة صفراء لإنسان، وكما لو أنه يراني، مثلما أراه. نقطة بعيدة كنت أتأمله حتى رفعت يدي ملوّحًا له، ولكني لم أجد استجابة واضحة، فقط تحرك الرأس حركة صغيرة، ثم عاد إلى سكونه، فرفعت يدي ملوّحًا مرة

أخرى، ولم أجد ردًا، وبدا لي الرأس أكثر جمودًا كصنم، كأنه يريد أن يتفرج فقط، دون أن يكون بحاجة إلى مد جسور علاقة مع أحد. حتى رأيته بعد وقت يتحرك ويميل برأسه، فلوَّحت له بيدي، ارتفع قليلاً، فلمحته لأول مرة واضحًا بثوب أحمر قانٍ. كأنه الفرح نفسه، يرقص على جدران بيوتنا، ويطل علينا من علو، يليق به.

فعل غامض

عدت إلى البيت في الثالثة ظهرًا لأجده كالعادة في انتظاري، صامتًا بوقفة مهيبة، وضعت الصحف جانبًا ولم أجلس لآكل، مضيت على غرفتي بسرعة، لم أخلع ملابسي، ولم أدخل الحمام، اتجهتُ رأسًا إلى السرير، رميت جسدي وفتحت جهاز التسجيل، كما لم أكن معتادًا. وآثرت هذا اليوم أن أنام على ظهري. ويالله، أي راحة تكشف عنها هذه الطريقة في النوم!

كنت أُحدِّق في سقف الغرفة، كأني أراه لأول مرة، كان متشققًا، وجيره الأبيض مقشورًا من أثر المطر، وفي الركن الأيسر للسقف آثار حذاء طبع نفسه بقوة. وعندما نظرت إلى أرضية الغرفة، شملني دوار عظيم، حتى أن سلطان النوم

داهمني فجأة، على غير عادة. بشكل ممتع ولذيذ، فهل كنت بحاجة إلى مثل هذا التغيير كي أنام بسهولة؟!

ربما يأتون

ربما يتركون بيتهم القديم، ويأتون، أخيرًا.

يأتون إلى مدينتنا التي ستحتفل بأرواحهم المبتهجة وملامحهم الجميلة.

يأتون إلينا..

يأخذون بيتًا جوار بيتنا، فنسمع أصواتهم في الليل والنهار.

ربما يتركون بيتهم، يُحمِّلون سيارتهم ويدخلون المدينة من كل أبوابها دفعة واحدة، ثم تتبعثر أقدامهم في تراب حارتنا، وتنطق مهرة الغناء في أرواحنا.

ربما يأتون، هم ودماؤهم، وبعض أسرار الطريق.

ينظرون خلفهم إلى بيتهم القديم وآثار أعمارهم.. ثم.. يأتون إلينا. ربما...

وظيفـة

في الصباح، بعد أن استيقظت كنت أشعر -كالعادة- أنني في حاجة إلى فعل شيء ما، كنت غامضًا حتى التعب، بالأحرى تائهًا، وكنت على يقين كبير، بأن أي خطوة خارج البيت للبحث عن وظيفة هي خطوة بائسة وتَعِسَة، ومحض عبث، لكنني لست بليدًا لأنني أبارك ساعاتي، وأتلو عليها أغنياتي. نهضت أنفض راحتي من سُبات طويل، خلعت ملابسي ودخلت الحمام، مكثت في مائه الدافئ، ثم عدت إلى غرفتي أقطر ماء، صنعت كأسًا من الشاي، وضعت شريطًا في الجهاز الصغير، وبدأت في عمل أشياء كثيرة.

نظَّفت غرفتي وراجعت أوراقًا قديمة.

لكنه يتعذَّر عليَّ ألا أكون مُتعَبًا وقانطًا ومكسورًا، رغم أني أستطيع إقناع نفسي بجدوى أي عمل أقوم به، وكنت أهجس بالعمل، الذي صار مثل الحلم التعِس.

كتبت وقرأت وأشعلت نار التاريخ، للغة المخنوقة الأنفاس، ذررت رماد الأشياء، فالتمعت شهبًا وأقمارًا، بينما تصدح موسيقا، وكنت أبدو كما لو أنني أريد أن أجلد نفسي بالتعب. عقاب ذاتي موصول صحيح وعميق حتى النسيان.

كانت إيقاعات الموسيقا ترتفع عذبة وغامضة، ذراعاي تتركان كل شيء، تتمايلان ببطء، صوتي بنبرة واهنة يرتفع قليلاً مع إيقاعات الموسيقى، رفعت الصوت متجاوبًا مع هذه الحالة الجديدة. أغلقت باب الغرفة بتوجُّس، أغلقت النافذة، وسرعان ما بدأ جسدي وأطرافي، كما لو أنها ترقص، رأيت ذراعَي تتمايلان، تعانقان فضاء الغرفة بنزق، وأطراف قدمَي في حركات دائرية موصولة.

وكنت كلما أُتِم دورة، أبدأ في أخرى، مقنعًا نفسي أنه ربما حان الوقت بعد هذا الانتظار للرقص، وارتفعت حدة كل شيء.

بدأ جسدي ينزف العرق، وبدأت أشعر بنشوة الفعل، أذرع فراغات الغرفة، وأنا أتمايل بشكل جاد وصريح، مع إيقاعات موسيقية غامضة وأصابع قدمي تُلامِس بخفة ورشاقة أرضية الغرفة، وجسدي يتثنَّى بفرح جاد.

شعرت أنني أريد أن أعيش هكذا، متمتعًا بهذا الوقت ببذخ شديد، حتى سمعت صوتًا في الخارج، ولكنني -في ذروة المجد- أتظاهر كما لو أني لا أسمع سوى الموسيقا. الموسيقا فقط.

تعثـر

اشتعل الصباح مبكرًا هذا اليوم، فصحوت ممتلئًا بالتعب والنعاس. اغتسلت ولبست ملابسي على عجل، كما أفعل في كل صباح شقي. كنت جائعًا وظمآن، لمحت عقارب الساعة فوجدتها الثامنة، ارتبكت، ركضت في أنحاء الغرفة أبحث عن ساعة يدي، وجدتها على جهاز التسجيل، ركضت وأنا أضعها على يدي فتعثرت في السرير، ويا لها من سقطة مهيبة وفذة وجميلة، إذ التصق وجهي بالفراش الناعم للسرير وتمدد جسدي، فشعرت على الفور بذلك الدوار الرائع الذي يشبه دوار البحر، ذلك الذي يدعوك لكي تستلقي ثم تنام. استوى جسدي تمامًا على الفراش بمتعة صريحة وواضحة لا لَبْس فيها، متعة غالية لم أشأ أن أفلِتها.. كنت أفكر في أشياء كثيرة مبهجة أود أن أراها في نوم متطامن، ولهذا مكثت في الفراش متمتعًا بهذا الدوار العظيم ومقنعًا نفسي بأن في الوقت متسع

للعمل.. حتى أخذني سلطان النوم فجأة. كنت بكامل ملابسي الأنيقة وحذائي اللامع وساعة يدي الذهبية.. كما لو أنني ذاهب إلى عُرس.

الفهرس

أولاً: ليل ضال مثل بلاد ضائعة

كمين الحكاية.....11
ليل ضال مثل بلاد ضائعة.....17
محاولة دفن رطبة.....21
طريق المحطة.....27
مجرد مؤامرة.....33
محاولة ترميم.....37
وقعت الواقعة.....43
سيناريو صغير.....49
مقهى في حي الغدير.....53
ليلة غاب فيها القمر.....57
يمضي مثل عابر سبيل.....61
التدريب على الخروج من الوادي.....67
رحلة مشي في البراري القديمة.....71

ثانيًا: قصص مختارة من كتب المؤلف

الأناشيد والناس.....77
أظافر صغيرة وناعمة.....81

متتاليات ليلة البارحة.....85
شموخ.....89
شروق البيت.....93
سارة قالت هذا.....97
أنفاس الليل.....103
إذعان صغير.....111
أبواب وطرقات حائرة.....117
نسيان.....121
خوف.....123
تعارف.....125
رؤية.....127
رأس.....129
فعل غامض.....131
ربما يأتون.....133
وظيفة.....135
تعثر.....138

المؤلف في سطور:

فهد العتيق

كاتب سعودي من مواليد الرياض .

يعيش في العاصمة الرياض التي كتب عن حاراتها القديمة والحديثة أغلب قصصه ورواياته .

صدر له عدة كتب في القصة والرواية من أهمها: إذعان صغير وكائن مؤجل .

صدر للكاتب:

1) مسافات للمطر/ المجموعة القصصية الأولى، جمعية الثقافة بالرياض عام 1985م

2) عرض موجز/ المجموعة القصصية الثانية، إصدار خاص بالرياض عام 1990م

3) إذعان صغير/ المجموعة القصصية الثالثة، عن مختارات فصول بالقاهرة/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام 1992م

4) أظافر صغيرة وناعمة/ المجموعة القصصية الرابعة، عن النادي الأدبي بجدة عام 1997م، وعن مختارات فصول بالقاهرة عام 2000م

5) كائن مؤجل/ رواية، 2004م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت .

6) هي قالت هذا/ المجموعة القصصية الخامسة، وتضم أيضا مختارات من الكتب السابقة ولحظات نقدية، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت2007 م .

7) كمين الجاذبية/ المجموعة القصصية السادسة، قصص قصيرة جدا ونصوص، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت2007م

8) الترجمة الإنجليزية لرواية كائن مؤجل: life on hold ، منشورات الجامعة الامريكية بالقاهرة عام 2012

9) رواية الملك الجاهلي يتقاعد.. المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت 2014م .. وصلت الرواية الى القائمة الطويلة في جائزة الشيخ زايد للكتاب عام 2015 .

https://www.facebook.com/fahdateq